ماذا تعرف عن المدينة الأندلسية ؟

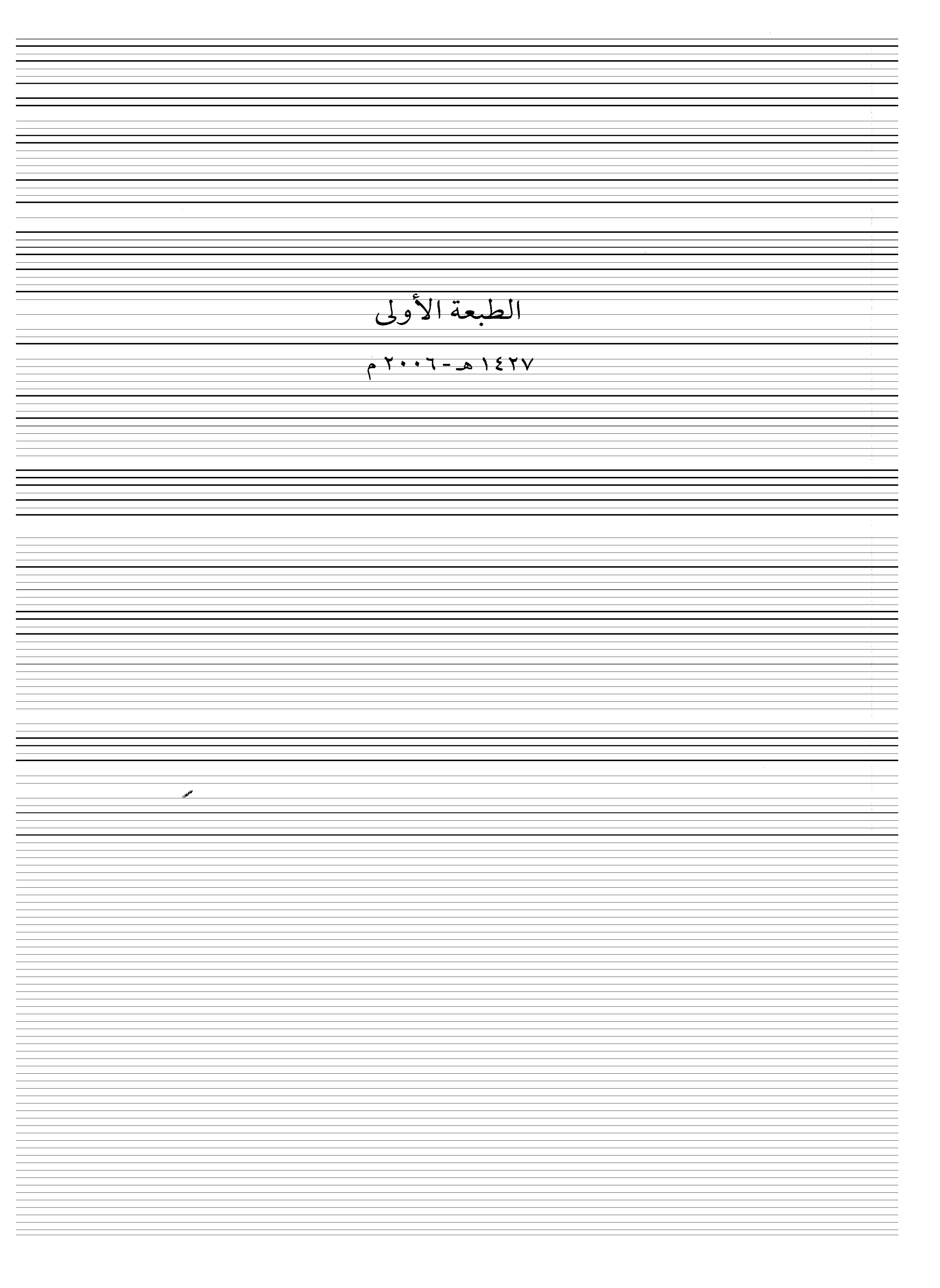
قرطبـــة

جوهرة العالم

بقلم

علي القاضي





الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

مقدمة

الفتح الإسلامي لشبه جزيرة أيبريا (أسبانيا والبرتغال) والتي سميت بعد ذلك بالأندلس كانت فرصة أهلت المسلمين لاكتشاف كثير من الأشياء التي لم تكن معروفة من قبل .

لقد كان ظهور محمد ﷺ بعثا جديدا للإنسانية كلها ، ولقد ربى أصحابه تربية إسلامية كاملة متكاملة .

ولذلك فإنهم حملوا الأمانة وبلغوا الرسالة وغيروا الموازين الدولية وطوروا الأوضاع الاجتماعية في كل الدول التي فتحوها .

نعم لقد خرجت القوة المؤمنة الجديدة تحمل راية الله تعالى وتتابعت انتصاراتها الباهرة ولم يشهد التاريخ انتصارات مظفرة مثلما شهد في انتصارات الفتوح الإسلامية ، لقد افتتح عمرو بن العاص مصر وأدخلها في الدولة الإسلامية الجديدة وسار عقبة بن نافع الفهري يفتح شمال إفريقيا حتى وصل إلى المحيط الأطلسي الذي كان يعرف في ذلك الوقت ببحر الظلمات ، وأشهد الله تعالى على أنه لو كان يعلم أن وراء هذه الظلمات أرضا أخرى لما وقف شيء دون غايته وأمانيه ، وبينما كانت جيوش المسلمين تفتح سمرقند والهند في الشرق سنة ، ٩٢ هـ / ٧١١ م ، كانت جيوش طارق بن زياد تدق أبواب أسبانيا في الغرب ، وانتصرت على جيش لذريق آخر ملوك القوط في موقعة " وادي لكة " وكانت معركة حاسمة فتحت الأندلس أمام المسلمين والعرب في ذلك الوقت كانوا يحملون لواء حضارة جديدة تفوقت على حضارات الشعوب الأخرى وكانوا من التماسك النفسي والخلقي بحيث لم يقف دونهم شيء .

ولذلك انساب الفتح الإسلامي في شبه الجزيرة العربية كالسيل الدافق آسيا وأفريقيا ووثب منها إلى أسبانيا والبرتغال .

نعم لقد فتح العرب تلك البلاد وقلوبهم يصفيها الإسلام والإيمان يدفعهم إلى نشر دينهم وإعلاء كلمته .

وكانوا يحملون معهم تراثا حضاريا رائعا لم تعرفه الجزيرة الأيبرية من قبل ودارت تلك البلاد في فلك الإسلام يبث فيها من حضارته ما أثر في كيانها تأثيرا قويا تناول شتى نواحي الحياة .

وقد أنتجت العبقرية الإسلامية في أسبانيا والبرتغال في أعوام قليلة الكثير في النواحي الحضارية من جميع نواحيها .

وقد قضى الإسلام في هذه البلاد على الأوضاع السيئة التي كانت قبل الفتح ، فلم يعد هناك طبقة متحكمة متمثلة في الأسرة الحاكمة ، وزال سلطان الكنيسة وانتهت عبودية الأرض والرقيق وتحرر كل من دخل في الإسلام .

وأصبحت القيم والتعاليم الإسلامية وهى تقوم على العقيدة والإيمان والالتزام مثلا متحركة تشاهد عيانا وتسر الناظرين .

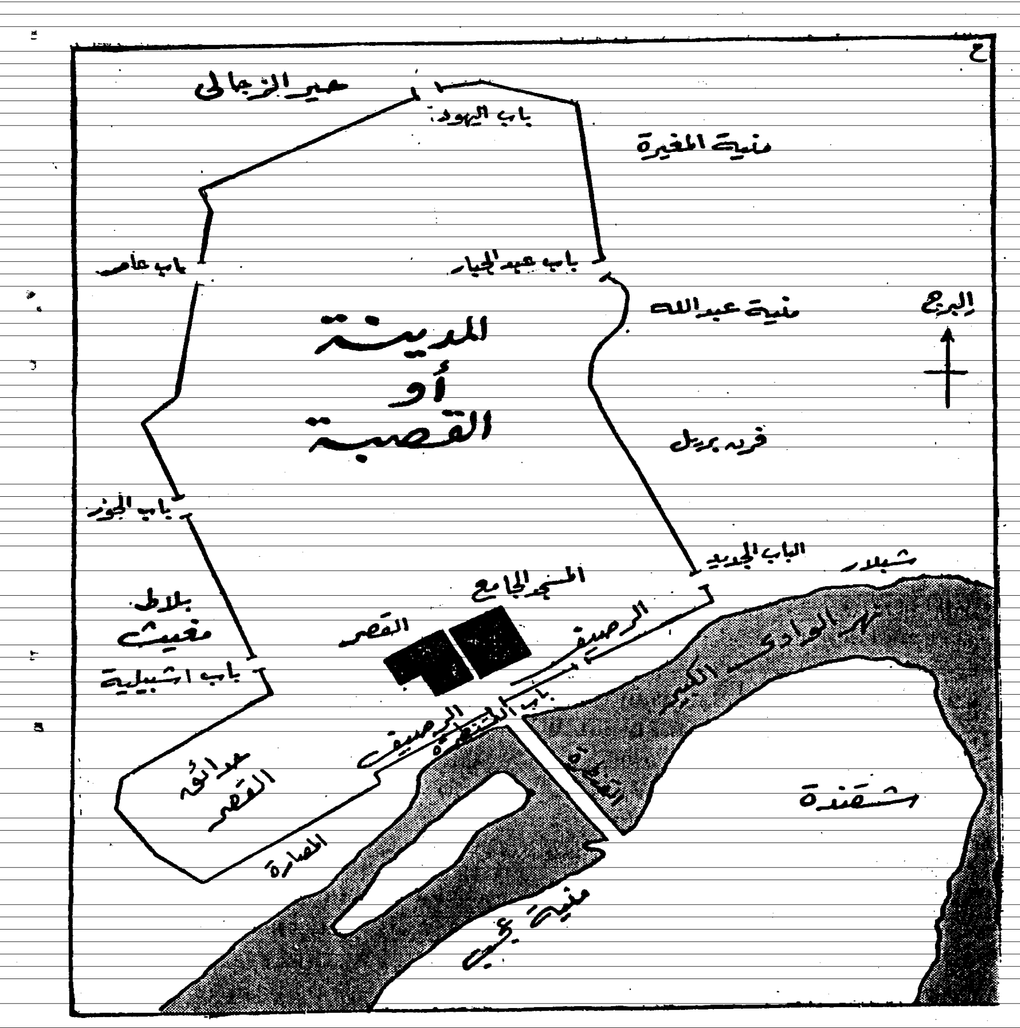
ولذلك فقد دخل الناس في دين الله أفواجا وأصبح المسلمون أغلبية كبيرة في الأندلس وأكثرهم من سكان الأندلس الأصليين .

شبه جزيرة ليبريا : كان الرومان يحكمون شبه جزيرة ليبريا منذ فترات طويلة وكان يحكم شبه الجزيرة رجل اغتصب الملك من أهله فذهب البطريك المخلوع إلى الأمير المسلم طارق بن زياد واتفق معه على فتح الجزيرة وتأهب طارق لفتح الجزيرة وسار إلى فتحها ولحق به موسى بن نصير وسار في طريق آخر ، وتم فتحها وأصبحت الجزيرة تابعة لوالى أفريقيا وكان أول وال تولى السلطة بعد الفتح الإسلامي عبد العزيز بن موسى بن نصير وكان يعاصر جبل العرب من الفاتحين الأسبان الذين دخلوا في الإسلام وكانوا يسمون العرب المسالمة والذين بقوا على دينهم من النصارى كانوا يعرفون بالعجم وكان لهم رئيس يسمى بالنوس ، وكانوا أهل الذمة في أمن على أنفسهم وأموالهم لا يتعرض لهم

أحد بسوء ولا يكرهون على الدخول في الإسلام ، والذين ولدوا من آباء مسلمين ونشؤوا على الإسلام كانوا يؤلفون الكثرة الغالبة من السكان والمستعربون هم نصارى الأندلس الذين عاشروا العرب وتعربوا وأقاموا في ديار الإسلام وكان السواد الأعظم من المستعمرين يقيمون في قرطبة واشبيلية وطليطلة .

اليهود : لقد وجد يهود أسبانيا والبرتغال في رحاب الإسلام منجاة لهم من اضطهاد القوط وتحريرا لهم مما أصابهم ، فقد فرضت عليهم المجامع المسيحية قيودا تناولت أحوالهم الشخصية وحرمت عليهم أحيانا تولى المناصب العامة

ولذلك فقد وجدوا في الفتح الإسلامي الراحة والاطمئنان ، واليهود ليس لهم حضارة خاصة بهم وما نبغوا فيه كان في ظل الإسلام وبدافع من حيويته وبعد سقوط الدولة الأموية في المشرق ذهب إلى الأندلس عبد الرحمن الداخل الذي لقب بصقر قريش واستطاع أن ينشئ دولة أموية في الأندلس .



قرطبة في القرن العاشر

قرطبة

ومنذ ذلك التاريخ بدأت قرطبة تأخذ دورها في توجيه دفة الأمور وبرزت لتشارك عواصم العالم المتحضر آن ذاك في السياسة والثقافة والعبارة وغير ذلك من مظاهر الحياة الحضارية .

وكانت مستقر الخلافة وموطن الوزارة وموئل أهل العلم ومقصد الطلاب وكعبة الشعراء والأدباء وكان أهل قرطبة أول من عنى بترابط المدن وإنارة الطرق ليلا

وقد نافست قرطبة في عظمتها القيروان وبغداد والقاهرة وبخاري ودمشق وفى أول ذي الحجة من عام ٣١٦ هـ نصب عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة للمسلمين في الأندلس وتسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله وجعل عاصمته قرطبة .

وأصبح سلطانه يمثل سلطان المسلمين في الغرب الإسلامي ووفدت عليه السفارات المسيحية تلتمس المفاوضة في شتى الشؤون الثقافية والتجارية والسياسية كما وفد إليها الملوك والشعراء يقدمون إلى أميرها فروض الولاء والطاعة .

وعقدت معاهدات وعلاقات سياسية بين قرطبة ومعظم الدول النصرانية وتوالت وفود ملوك النصارى بعد ذلك على قرطبة ينشدون الحلف ويرجون الصداقة والمودة من زعيم الإسلام في الغرب .

وفى سنة ٣٦٦ هـ/٩٤٨ م وفد على الناصر رسل قسطنطين السابع إمبراطور قسطنطينية بهدية ثمينة وكان يوما مشهودا زين فيه قصر الخليفة بأبدع زينة ونظمت العساكر والجنود تنظيما كبيرا أدهش ضيوف الناصر وجلس الأمير على كرسي الخلافة في مهابة وإجلال يحف به أعضاء الأسرة الأموية وكبار رجال الدولة وقدموا إلى الناصر كتاب الإمبراطور مكتوبا باليونانية وعلى الكتاب طابع ذهبي على أحد وجهيه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الإمبراطور مصنوعة من الزجاج الملون البديع وفى ترجمة

عنوانه ما يلي : (من قسطنطين وأتباعه المؤمنين بالمسيح إلى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاءه) .

العمران في قرطبة :

أسرع عبد الرحمن الداخل ببناء قصر الإمارة بقرطبة ثم المسجد الجامع ثم بنى قصر الرصافة الذي خلد فيه ذكراه تشبيها له بوصافة جده هشام بدمشق .

ثم شيد عبد الرحمن الأوسط القصور وبنى المساجد الجوامع وأدخل في البلاد كثيرا من مظاهر الحياة الحضارية .

تقسيم قرطبة :

وقد قسمت قرطبة إلى خمس مدن تلي بعضها بعضا وبين المدينة والمدينة سور عظيم حصين حاجز وكل مدينة مستقلة بنفسها وفى كل منها من الحمامات والأسواق والصناعات ما يكفي أهلها .

وكان يتبع قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل منها مسجد وفقيه له الفتيا في الأحكام الشرعية وكان يبصر الناس بأحوالهم وبأمور دينهم ، وكان يأتي إلى المسجد الجامع بقرطبة المصلون لتأدية صلاة الجمعة مع الخليفة وكانوا يسلمون عليه ويطلعونه على أحوال العيلة.

وقد بلغت شهرة قرطبة أهل أوربا فأطلقوا عليها في النصف الثاني من القرن السابع الهجري : (جوهرة العالم) .

وقد اتصلت مباني قرطبة والزهراء والزاهرة بحيث انه كان يمشى فيها الإنسان تحت ضوء السرج المتصلة عشرة أميال وكان عدد أرباضها ٢١ ربضا في كل ربض منها المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله ولا يحتاجون لغيره وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل منها فقيه مقلص (يلبس قلنسوة) تكون الفتيا في الأحكام الشرعية له وكان الفقيه يلبس دائما القنسوة على رأسه وقال شاعر في ذلك :

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها ولا تعظم بلاد الفرس والصين

فما على الأرض قطر مثل قرطبة وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

وقال أحمد الرازي (قرطبة قاعدة الأندلس ودار الملك التي يجبى إليها ثمرات كل جهة وخيرات كل ناحية زاهرة مشرفة أحدقت بها المنى فحسن مرآها وطاب هواؤها)

وقال : (قرطبة أم المدائن وسرة الأندلس وقرارة الملك في القديم والحديث والجاهلية والإسلام ونهرها أعظم أنهار الأندلس ، وبها القنطرة التيهي إحدى غرائب الأرض في الطبيعة والجامع الذي ليس في بلاد الأندلس والإسلام اكبر منه) .

مسجد قرطبة :

فكر عبد الرحمن الداخل في تشييد مسجد جامع يضارع المسجد الكبير في دمشق في بهائه ورونقه .

وقد تجلت قدرة العرب ومواهبهم الفنية في تشييد المساجد حيث يؤدون صلواتهم ويحافظون على شعائر دينهم فكانت هذه المساجد آية من آيات الفن وروعة من روائع الزمن .

وقد فاقت المساجد الإسلامية الكنائس المسيحية عظمة ونافستها في زخرفتها ونقوشها وقد وضع حجر الأساس لهذا المسجد في عهد عبد الرحمن الأول وظل العمل مستمرا طوال إمارته وبعدها .

وقد توفى عبد الرحمن في سنة ١٧٠ هـ فأتم ابنه وخليفته هشام الأول بناء المسجد ومن هذا التاريخ أصبح المسجد الجامع موضع اهتمام الخلفاء ومحل رعايتهم وتناولوه بالزيادة والتجديد والزخرفة والنقش .

وقد أقام عبد الرحمن الناصر صومعة عظيمة عام ٣٤٠ هـ حلت محل الصومعة القديمة ، كما أقام الحكم المستنصر مظلة تقي الناس هجير الشمس في أثناء الصلاة وفى أثناء الوضوء وقد أنفق على ذلك ١٦١ ألف دينار .

والناظر إلى المسجد تبدو له الأعمدة وكأنها غابة من النخيل ينيرها ضوء شاحب يتسلل من الصحن ومن شبكات الواجهات .

وتتسم العناصر المختلفة باتساق في المظهر الداخلي وفى التركيب الداخلي يجدون تداخل العقود التيتقوم على عمد ودعائم مرتفعة في الفضاء وتنتهي عند السقف في وضع أفقي يمتنفه ظلام خفيف وعدد الأعمدة ١٤٢ .

والمسجد تعلوه قباب تتألف من ضلوع متقاطعة فيما بينها ، بحيث تتكون منها أشكال نجمية بديعة ومن أروع هذه القباب قبعة الضوء .

وتبلغ نوافذه ستة عشر نافذة يدخل منها الضوء فينير جوانب المسجد .

والمحراب أقيم على واجهته سبعة عقود ثلاثية الفصوص مزججة دقيقة التكوين والزخرفة .

أمكنة الوضوء بالمسجد: لقد هدم المستنصر الميضاة وبنى بدلا منها أربع ميضات، اثنتين كبيرتين للرجال من الجهة الشرقية والجهة الغربية ، واثنتين صغيرتين للنساء .

وكان الماء يجرى في جميع هذه الميضات من قناة جلبت من سفح جبل قرطبة ويصب ماؤها الذي لا ينقطع ليل نهار في أحواض رخامية، وقد أزيلت هذه الميضات عندما تحول المسجد إلى كنيسة بعد سقوط قرطبة في أيدي المسيحيين في النصف الأول من القرن السابع الهجري .

مساحة المسجد : تبلغ مساحة المسجد بعد زيادة المنصور ٣٣٠ ذراعا وتبلغ عرضه ٢٣٠ ذراعا وأعمدته من الرخام وكانت مكسوة بالذهب واللازورد ، وأصبحت بوائكه تسعة عشرة من الشرق إلى الغرب وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب .

وصارت أبوابه واحدا وعشرين بابا وقد كسيت بالنحاس الأصفر اللماع الرائع الصنع وكانت حوائط المحراب مكسوة بالفسيفساء .

المنبر : ومنبر هذا المسجد الجامع كان مصنوعا من العاج وبنفس الأخشاب وكان

يتألف من ٢٥ ألف حشوة (قطعة صغيرة من الخشب) سمرت بمسامير من الذهب والفضة كما كانت هذه الحشوات محلاة بالأحجار النفيسة ، وكان هذا المسجد ينار في الليل بـ ٤٧٠٠ مصباح وكان يستنفد في كل ضبة ٢٤ ألف رطل من الزيت ١٢٠٠ رطلا من العنبر والعود أما مصباح المحراب فكان مصنوعا من الذهب الخالص .

المنارة : كان ارتفاع المنارة إلى مكان الآذان ٥٤ ذراعا ، وكان طول كل حائط من حيطانها على الأرض ١٨ ذراعا .

ويعتبر مسجد قرطبة الجامع من أجمل مساجد الإسلام في كبر مساحته وإحكام صنعه وإتقان بنيته وأصالته وقد تضمنت عمارته عناصر جديدة مبتكرة ظهرت لأول مرة في تاريخ العمارة العالمية وقد أضاف عبد الرحمن الأوسط ٢٠٦ / ٢٣٨ هـ لهذا الجامع الأعظم زيادته الأولى بإضافة رواق أو بلاط من كل جانبيه الشرقي والغربي في سنة ٢١٨هـ ، وإضافة ثانية من جانبه القبلي مساحة ٢٤ مترا سنة ٢٣٤ هـ ،وفى عهده نشطت حركة البناء والتعمير .

وكان يقوم على خدمة هذا المسجد ٣٠٠ رجل لإنقاذ البخور وإعداد الزيت العطر لإضافة عشرة آلاف قنديل فتيل للقناديل .

وظل هذا المسجد كعبة القصاد وجذب إليه طلاب العلم من الشرق ومن الغرب ومن مسلمين ومسيحيين ، وذاع ذكره بين الناس ونافس المدرسة النظامية في بغداد والأزهر في مصر ، وفى سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) سقطت قرطبة في يد فرديناند الثالث المسيحي وبدأ في محو معالم الحضارة الإسلامية في قرطبة .

وكان مما قام به أن حول المسجد إلى كنيسة ولا زال حتى الآن يحمل اسم Lamez uitade casculia وهى كلمة أسبانية محرفة عن العربية ومعناها المسجد .

قنطرة قرطبة :

ينبع نهر الوادي الكبير من مرتفعات سيراموريـنا ، ثم يشق طريقه بعد المنبع من سلسلتين من الجبال ويبدأ واديه وبه ضيق من منبعه حتى مسافات طويلة ، ثم يبدأ في الاتساع عند قرطبة حتى يبلغ أقصى اتساع في الجزء الجنوبي ويصب النهر في المحيط الأطلسي جنوبي شبه جزيرة ايبريا .

وتمثل سهول هذا النهر منطقة من أغنى المناطق الزراعية في الأندلس وكان من أحسن الأنهار مطرزا بالأزهار وتصدح في جوانبه الأطبار وتعتبر هذه القنطرة من أعظم أنهار الأندلس وأعجبها وأقواسها سبعة عشر قوسا .

وطولها ٨٠ ذراعا وعرضها عشرون باعا وارتفاعها ٢٠ ذراعا وعدد حناياها ١٨ حنية (قوس) وعدد أبراجها ١٩ برجا .

وقنطرة قرطبة من القناطرة التي لا تزال آثارها باقية منذ فتح العرب لهذه البلاد .

وقد قام بن مالك الخولانى الوالي من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز بتجديدها سنة ١٠٢ هـ .

ثم قام الخليفة الأموي هشام بن عبد الرحمن الداخل تجديدها وتدعيمها حتى صارت من أعظم الآثار الإسلامية وكان بالطرف الغربي من هذه القنطرة قلعة سماها العرب (القنطرة الحرة) .

وكان لها برجان عظيمان وكانت قرطبة تمتاز بهذه القنطرة ومما قيل فيها :

بأربع فاقت الأمطار قرطبة ... منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم أعظم شيء وهو رابعها

متنزهات قرطبة :

كانت الأرض التي تحيط بقرطبة مكسوة بمزروعات مختلفة الأنواع وكانت تبدو

وكأنها بساط سندسي مطرز بالألوان المتعددة من الأزهار ومزين بالمتنوع المثمر من الأشجار يترقرق الماء بينها صافيا في مجار أبدعتها يد الخالق القدير.

وكان سكان قرطبة يتوجهون إلى هذه الأماكن للتمتع بجمالها ولقضاء فترات الراحة والاستجمام بها وقد أقام الخلفاء متنزهات متنوعة وقصور فخمة في هذه المناطق تغنى بجمالها الشعراء وأبدع في وصفها الكتاب .

وفي أيام الأعياد كانت الأنوار تتلألأ فيها وتنبعث من متنزهاتها ألحان الموسيقا الذي يشيع في النفس الراحة ومن المتنزهات التي شاع ذكرها وانتشر بين أرجاء الدنيا صيتها :

منتزه الرصافة : أنشأ عبد الرحمن الداخل ضاحية بشمالي غربي قرطبة أطلق عليها اسم (الرصافة) تشبها برصافة دمشق ثم أقام بها قصرا منيفا لسكناه وألحق به متنزها به حدائق غناء بديعة نقل إليها غرائب الغراس وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها .

منتزه السرادق : من المنتزهات المشهورة بجمالها وحسن تنسيقها وبديع أزهارها وكان مقصدا للفرجة يسرح فيه النظر وتبتهج فيه النفس .

قصور قرطبة :

ازدهرت قرطبة بكثير من مبانيها الفسيحة ودورها الكبيرة ، وانشأ الخلفاء في قرطبة أو قريب منها قصورا مصممة لسكناهم وللراحة والاستجمام فيها المجلس الزاهر والبهو الكامل .

قصر الإمارة : قصر قديم كان فيه من المباني الأولية والآثار العجيبة لليونان والروم والقوط ما يعجز عنه الوصف .

وقد اتخذ عبد الرحمن الداخل منه قصر لأمارته وأخذ في تجميله والعناية به وكذلك فعل الأمراء من بعده ، وقد ألحق به عبد الرحمن الرياض والبساتين الجميلة وأجرى الماء إلى كل ساحاته ، وكان فيه قباب عالية لم ير الراؤون مثلها في مشارق الأرض ومغاربها .

قصر الدمسق : من القصور الجميلة التي أبدع بناؤها ونمقت ساحاتها وأفنيتها وكان يقوم على أعمدة الرخام وقد اتخذه أمراء الأندلس مجالا للترفيه وقد تغنى الشعراء بماله وحسنه وفضلوه على كل القصور .

وكانت وروده وأزهاره تنشر أريجها فتملؤه النسمات بما يشرح الصدر ويزيل الهموم من النفوس وقد وصفه الشاعر ابن عمار بقوله :

كل قصر بعد الدمسق يذم ... به طلب الجني ولذ المشم

منظر رائق وماء نمير ... وثرى عاطر وقصر أشم

قصر الروضة : بناه عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٤ هـ ، وقد اختار مكانه على بعض المرتفعات الشرقية على نهر الوادي الكبير وكانت حيطان هذا القصر من الرخام السميك وكانت مبانيه تقوم على ٤٣٠٠ عمودا من أنواع الرخام المنقوش نقشا متساويا ، ومن العجائب التي كانت بهذا القصر بركة كان بها أوزة من ذهب في رأسها لؤلؤة كبيرة وكانت هدية من القيصر ليون إمبراطور القسطنطينية إلى الخليفة وصهريج مملوء بالزئبق فإذا أراد الخليفة أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أو ما إلى أحد حراسه ليحرك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد ضاربهم ما دام الزئبق يتحرك .

وكانت تحيط بهذا القصر حدائق واسعة في وسطها قبة للخليفة معدة لاستراحته بعد القنص تقوم على أعمدة رخامية ذات تيجان مذهبة وقد بلغ من اتساع هذا القصر أنه كان يحوى أربعمائة حجرة ، وأجنحة يأوي إليها آلاف الحراس والعبيد .

ضواحي قرطبة :

بلغت أرباض قرطبة نيفا وعشرون ربضا ، وكان لكل ربض أسواقه وحوانيته ومسجده .

الزهراء : حكم عبد الرحمن الناصر الأندلس من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٣٥٠ هـ ، وفي عهده ازدحمت قرطبة بسكانها فاتخذ لنفسه مدينة بالقرب من قرطبة وسماها الزهراء .

ورأى أن يجعلها مكتملة المعالم والاحتياجات فبنى بها مسجدا ليكون كغيره من المساجد الإسلامية الجامعة مركزا للعلم ومجمعا للعلماء ومنارا تشع منه المعارف ، ولكنه كان يؤدى الجمعة والأعياد في مسجد قرطبة وكان يعمل في مسجد الزهراء يوميا ثلاثمائة بناء ومائتا نجار وخمسمائة من الصناع والفعلة وكان طوله من القبلة إلى الصحن ١٣٧ ذراعا وعرضه من الشرق إلى الغرب ٥٩ ذراعا ، كما أقيم فيه منبر حول مقصورة جميلة .

وكانت أرضيته مفروشة بالرخام ذي اللون الأحمر كما حلى وسطه بنافورة بديعة الصنع ، وقد استمر العمل في مدينة الزهراء من عام ٣٢٥ هـ إلى آخر دولة الحكم بن الناصر نحو أربعين عاما .

وأول جماعة صليت فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة وأول خطبة خطبها القاضي أبو عبد الله بن محمد أبى المنسي وكانت الزهراء تتكون من ثلاثة أقسام لكل قسم منها سوره .

كان بالقسم الأول القصور وبالقسم الأوسط البساتين والرياض وبالقسم الثالث الدور والمسجد وقد تأنق الناصر في بنائها وبالغ في زخرفتها وجلب إليها الرخام المختلف الألوان من بلاد الأندلس ومن مدن أفريقيا ومن القسطنطنية وبعضه أهدى إليه من الملوك والأمراء .

وبلغت الأعمدة أربعة آلاف عمود والأبواب خمسة عشر بابا ، وظل العمل جاريا فيها أربعين سنة شملت حكم الناصر وابنه الحكم المستنصر وقد اتخذ الناصر بها قصر الروضة وجعل الزهراء دارا لمنزله وكرسيا لملكه وأنشأ بها القصور الفخمة والبساتين الأنيقة وخصص بها للوحوش محلات فسيحة متباعدة السياج كما علق بها مسارح للطيور مظللة بالشباك وأقيمت بها دور للصناعة كصناعة آلات الحرب وغيرها من الحرف .

وقد حفر قناة من نهر الوادي الكبير تمر بالجبل طولها ٨٠ كم تمت عام ٣٢١ هـ ولا تزال باقية حتى الآن وقد أطنب الشعراء في وصف ذلك كله .

وفى سنة ١٩١٠ م اكتشفت الحفائر الأثرية جمالها المطوي وقال ابن خلكان عن الزهراء : " إنها من عجائب الدنيا أنشأها الناصر أحد ملوك بنى أمية بالأندلس بالقرب من قرطبة سنة ٣٢٥ هـ ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلثا ميل " .

وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ٢٧٠٠ ذراعا وعرضها من القبلة إلى الجنوب ١٥٠٠ ذراعا وعدد السواري التي بها أربعة آلاف وثلاثمائة سارية .

وكان يعمل في عمارة الزهراء كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ١٥٠٠ وكان يصرف من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة .

وقد انتقد العالم منذر بن سعيد البوطي إمام مسجد قرطبة تصرف الخليفة وبذل الأموال الضخمة في بناء هذه المدينة مما شغله عن مباشرة أمور الدولة .

ولم تعمر المدينة طويلا فقد خربت في عام ٣٩٩ هـ في عهد محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الذي عاد إلى قرطبة واتخذها دارا للإمارته .

الزاهرة : أنشأ الحاجب المنصور بن أبى عامر مدينة الزاهرة سنة ٣٦٠ هـ شرقي قرطبة ، واستغرق بناؤها عامين .

وشيد لنفسه بها قصرا فخما انتقل إليه سنة ٣٧٠ هـ واتخذ بها الدواوين والأعمال وقامت بها الأسواق واتسعت بها المرافق والأرزاق وأنشئت بها البساتين النضرة واتسع بناؤها حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة .

وقد ملأها المنصور بجميع أمتعته بأسلحته وأمواله ، وتوسع مع الأيام في تشييد أبنيتها حتى كملت أحسن كمال وجاءت في نهاية الجمال ، وأنشأ المنصور بالقرب من الزاهرة ضاحية صغيرة أقام بها قصوره وقد عرفت باسم العامرية ولم تدم الزاهرة طويلا ودكت في سنة ٤٠٠ هـ وأصبحت في خبر كان بعد أن كانت حديث الناس ومقصد

الآمال زهاء ثلاثين عاما .

ولما فرغ المنصور من بناء الزاهرة بدأ في المعارك مع الأعداء ودخل من المدن ما لم يدخله أحد من المسلمين قبل ذلك ثم دخل قرطبة دخولا لم يعهد قبل ذلك وشهد له فيها يوما لم يشهد مثله قبل ذلك .

وكان المنصور إذا عاد من معركة استعد لمعركة أخرى ولم تهزم له راية قط مع كثرة حروبه في الصيف والشتاء على السواء .

الصناعة :

عنى الأمراء في قرطبة بالصناعة عناية فائقة في نواح كثيرة منها :

دار الصناعة بقرطبة : وكانت دار الصناعة بقرطبة ملتصقة بقصر الخلافة وقد عرفت بـ " دار صنعة قصر قرطبة " وكانت مخصصة لصناعة السفن .

كما أنشئت دار صناعة أخرى في مدينة " وشقة " كانت مخصصة لصناعة العدد الحربية من دروع وآلات نحاسية وحديد ثم تحولت دار صناعة السفن بقرطبة إلى دار لصناعة التحف المدنية ، وقد أنشأ عبد الرحمن الناصر دارا تابعة للصناعة في مدينة الزهراء لصناعة آلات السلاح والحلي وأدوات الزينة كذلك بعض التحف العاجية .

وكان لهذه الدار الجديدة الفضل الأعظم في إنتاج عدد كبير من التحف العاجية ومن الجدير بالذكر أن معظم التحف العاجية كانت مخصصة لحفظ المسك والعنبر والكافور .

التحف الفضية : كانت تنتج في داري صناعة قرطبة ومدينة الزهراء وتحتفظ كنيسة سان امستدريون بليون بقطعتين صغيرتي الحجم من الفضية يتخذان شكل قلب ويتميزان بزخارفهما النباتية ونقوشهما المشابهة لزخارف وكتابات صندوق حرنب ويحتفظ المتحف المحلى للآثار بقرطبة بقنينة من الفضة لحفظ العطور مزودة بغطاء مقبب

له مقبض متصل بحلقة متينة في بدن القنينة ويتميز بعضها المخروطي الطويل والمركب على بدنها الكروي .

ويزدان هذا العنق بزخرفة قوامها عقود صغيرة متلاصقة تنبثق من إفريز دائري منقوش بزخرفة متكررة ، أما البدن المتكرر فيزداد بزخرفة تشبه الحبل المتوج .

التحف البرونزية والنحاسية : تتألف هذه التحف من طسوت وأباريق وأواني الطب والمباخر والأقداح والقناديل وكلها من إنتاج دار صناعة قرطبة ومدينة الزهراء .

وقد عثر في قرطبة في أرض أحد بيوتها وعلى عمق ثلاثة أمتار على ١٣ تحفة من البرنز والنحاس الأصفر منها مجموعة مكعبة الشكل من النحاس تنتهي حافتها العليا على امتداد الأرجل الأربعة بأربع حمامات صغيرة الحجم .

الثقافة :

حملت قرطبة مشعل الثقافة الإسلامية في الأندلس واحتلت مركز الصدارة بين دول أوربا وأفريقيا وغدت موطن جذب للعلماء والساعين من طلاب العلم وواد الثقافة .

وطبقت شهرة جامعتها ومدارسها ومكتباتها الزاخرة الآفاق ونمت فيها العلوم والفنون وبرز فيها العلماء في الفقه والحديث والتفسير واللغة والأدب والعلوم الرياضية من هندسة وحساب وفلك إلى جانب علوم الطب والموسيقا وغير ذلك من العلوم الوثيقة بحياة الإنسان وقرطبة من الناحية الجغرافية قطعة من أوربا ولكنها كانت وثيقة الصلة بالعلوم الإسلامية في المجالين الثقافي والعلمي .

وكان سكانها يرحلون في كل عام إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج ويقابلون الشيوخ الفضلاء والعلماء الأذكياء ، كما أن العلماء الشرقيين ذهبوا إلى الأندلس يحملون التراث الإسلامي ومنهم أبو على البغدادي الفقيه والأديب في زمن الناصر وكان الأمراء يشجعون العلم والعلماء ويجمعونهم من الأقطار المختلفة ويغدقون عليهم العطايا والهبات.

الفقه : وكان علم الفقه أول ما اشتغل به الأندلسيون وكان للفقيه عندهم والقاضي منزلة لا تدانيها منزلة .

الحديث : عنى الأندلسيون بالحديث ومن مشاهير حفاظهم أبو عبد الرحمن بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ هـ .

الفلسفة : كما عنى الأندلسيون بعلم الفلسفة وأول من عرف بالاشتغال بالفلسفة في الأندلس محمد بن عبد الله بن مسرة الباطني من أهل قرطبة سنة ٢٦٩ / ٣١٩ هـ .

الطب : كما عنى الأندلسيون بعلم الطب وأول من اشتهر به في الأندلس أحمد بن إياس من أهل قرطبة وقد أخذ ديكارت من المسلمين في الأندلس بعض المذهب الجدلية، كما أن اللغة العربية قد أثرت على اللغة الأسبانية في جميع نواحي الحياة وقد ساعد على نشر الثقافة الإسلامية أن حركة الانتقال كانت متاحة بين العواصم الإسلامية وكانت الوفود تأتي على هيئة بعوث علمية وتتسابق في الحصول على إجازات العلماء والشعراء وفى اقتناء الكتب النادرة والكبيرة .

والمقرى صاحب نفح الطيب يورد نحو ٢٥٠ ترجمة لمن رحلوا من الأندلس إلى المشرق ونحو ٧٥ ترجمة لمن رحلوا من المشرق إلى الأندلس ، وكان الشعور بالشخصية الأندلسية جادا في مواجهة أوربا النصرانية ، وقد شهدت قصور الأمويين والطوائف في قرطبة ألوانا من المساجلات التي قامت بين شعراء وأدباء وقد صارت قصصها ووقائعها مادة طيبة لحركة الفكر الأندلس وكان هناك أيضا مساجلات في الفقه وفى علم التوحيد .

آثار للثقافة الإسلامية : من الصور الثقافية للحضارة الإسلامية غسل الميت قبل دفنه والحمام يعتبر عنصرا إسلاميا يرتبط بالغسل والطهارة في الإسلام وقد بقيت الحمامات الإسلامية في قرطبة إلى قريب من القرن السادس عشر الميلادي يرتادها الرجال والنساء والأطفال .

وقد خصص لكل طائفة منهم يوم من أيام الأسبوع حتى لا يقع الاختلاط المفضي إلى الفساد ثم أخذت تلك العادة تختفي من المسيحيين .

والحجاب : كان من عناصر الثقافة الإسلامية وقد استمر شائعا في أسبانيا إلى القرن السابع عشر وكان يحرم على نساء النصارى أن يسرن سافرات في الطرق العامة ومنها قولهم إن شاء الله ومنها ذكر اسم الله تعالى إعجابا بمنظر جميل أو صوت حسن كالذي كان يفعله جمهور المسلمين في العالم حين يرددون لفظ الجلالة ، ومنها قولهم .. حرسك الله وحفظك .

ولا زال أهل الأندلس في الريف كلما ودع واحد منهم صاحبه قال له: Alapas dedids وهى الترجمة للتحية الإسلامية .. السلام عليكم، ومنها تقبيل الأيدي ومنها قولهم في الرسائل : أقبل أيديكم الكريمة .

وقد ترجم إلى الأسبانية كتاب السندباد (خدع النسان وكيدهن) وبعده بسنتين ترجم كتاب كليلة ودمنة وكذلك ترجم ألف ليلة وليلة الذي كان له آثره في القصص الأوربي ، وكذلك قصة ابن يقظان وهى ثمرة من ثمرات العبقرية الإسلامية والأدب التاريخي الذي يتعلق بعادات الشعوب ومظاهر حياتها .

المصحف العثماني بقرطبة :

كان المصحف العثماني متداولا في قرطبة وكان السلاطين لا يسافرون إلا ومعهم المصحف العثماني الكريم الذي كان له عند الأندلسيين شأن عظيم ومقام كبير وهو أحد المصاحف الأربعة التي بعث بها عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الأمصار (مكة / البصرة / الكوفة / دمشق) .

المكتبات :

تكونت في قرطبة على عهد الأمير الحكم مكتبة هائلة ، وكان عدد الفهارس التي

فيها تسمية الكتب أربعة وأربعون فهرسة في كل فهرسة عشرون ورقة وليس فيها إلا أسماء الدواوين .

وكانت هذه المكتبة تفوق في عظمتها مكتبات القاهرة وبغداد والإسكندرية بما تحويه من الكتب النادرة ، وكان الأمير الحكم يعمل جهده على أن يظهر الكتاب الحديث في مكتبة قرطبة قبل أن يظهر في موطن مؤلفه وحين سمع أن أبا الفرج الأصفهاني عالم العراق ألف كتابه المسمى بالأغاني بعث إليه سفيرا من سفرائه يحمل ألف دينار من الذهب الخالص ثمنا لهذا الكتاب وقد بهر المؤلف لهذا السخاء ثم أسرع وأرسل إليه الكتاب مصحوبا بقصيدة يطرى فيها الخليفة الأموي وكان الأمير الحكم إلى جانب ذلك مولعا بالقراءة شغوفا بالإطلاع وكان يقرأ ويعلق على ما يقرأ بخط يده .

وثبت على كل مؤلف اسم صاحبه وكناه وألقابه واسم عائلته والمكان الذي ولد فيه والمكان الذي مات فيه وغير ذلك .

وقد جمع في داره من الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد الجم الغفير .

مكتبات أخرى : كانت هواية جمع الكتب واقتناؤها متأصلة في نفوس شعب الأندلس حتى أصبح العلم من آلات التعيين والرئاسة .

وكان يقال : فلان عنده خزانة كتب ، وفلان عنده كتاب كذا ، وكتاب كذا لا يوجد إلا عند فلان .

قال ابن رشد : " إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها وقرطبة أكثر بلاد الله كتبا " .

وكان الأمراء يشاركون العلماء في علمهم وبعضهم كان يشارك الشعراء في شعرهم ومن الأمراء الشعراء الأمير عبد الله وأبو عبد الملك بن مروان والمستعين بالله الخليفة الأموي وولادة بنت المستكفي .

التعليم :

استوعبت المدارس الابتدائية جميع الأطفال في الأندلس وكان كل مسلم يجيد القراءة ويحسن الكتابة ، وقد أنشأ الحكم المستنصر خمسة وعشرون مدرسة جديدة ، أما التعليم الجامعي فكان في المسجد الجامع الذي كان يعتبر بمثابة الجامعة الحديثة وكان أشهر جامعة في العالم إذ ذاك .

فمسجد قرطبة الجامع كانت تلقى فيه المحاضرات في جميع المواد وكان الطلاب يأتون إليه من جميع أنحاء العالم الإسلامي والعالم المسيحي على السواء .

وكان يسود الجميع روح المودة الصادقة والزمالة المخلصة ومن هؤلاء الرواد البابا سلفستر الثاني عشر الذي حج إلى قرطبة أيام أن كان راهبا لتلقى العلم في قرطبة ؛ وقد أصبح بعد ذلك من علماء البابوات وأعظمهم شأنا .

ومن العلماء الذين قاموا بتربية الناشئة : أبو بكر بن معاوية وأبو على القالي صاحب كتاب الأمالي وابن القوطية عالم النحو المعروف .

والمواد التي كانت تدرس في جامع قرطبة : القرآن الكريم وتفسيره والحديث النبوى والفقه وأصوله وعلم التوحيد وقواعد اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة والتاريخ والشعر والنثر والطب والفلسفة والموسيقا.

وكان الطالب الذي يأنس فيه أستاذه الكفاية ويلحظ فيه القدرة على التدريس : يعطيه إجازة مكتوبة وقد تطورت بعد ذلك إلى الإجازات للأكاديمية الجامعية فيما بعد .

وقد أصبحت قرطبة مركز التعليم والتوجيه ، ووجد طلاب العلم والمعرفة أنفسهم مشدودين إليها ووردت وفود الدول المجاورة إلى قرطبة طالبة العون والصداقة حتى أن الفونس الثالث الملك النصراني المخلوع في سنة ٢٩٧ هـ لم يجد طريقا لتربية ابنه التربية الصحيحة إلا في قرطبة فعهد بتربية ابنه إلى علماء قرطبة .

وحدة اللغة :

عامل المسلمون في الأندلس السكان الأصليين معاملة كريمة كما يأمر بذلك الإسلام وكفلت الدولة لهم حرية العقيدة وحرية تأدية الشعائر الدينية وعرف النصارى بالمستعربين وكانت لغتهم اللغة اللاتينية ، وكانت اللغة العربية هي لغة العرب الفاتحين .

وفى عهد الأمير هشام الأول فرض تعليم اللغة العربية على المستعربين الذين يشاركون المسلمين في مدارسهم ثم أصدر قرارا بضرورة تعليم اللغة العربية الرسمية ، وقد برع المستعربون في اللغة العربية وتفوقوا في نظم القصيدة العربية على أبناء الضاد أنفسهم وأصبحوا مولعين بالتراث العربي من شعر ونثر بل وأصبحوا لا يتذوقون إلا الشعر العربي .

كما أصبح المسيحيون لا يعرفون اللغة اللاتينية وكان نصارى الأندلس أداة اتصال بين أسبانيا المسيحية ونشطت حركة الترجمة بين اللغات نشاطا محمودا ، وأقبل العلماء من المسلمين والمسيحيين واليهود على أمهات الكتب الدينية والأدبية والتاريخية والعلمية والفلسفية يترجمونها بأمانة وإخلاص .

ومن الكتب الدينية التي أقبل المترجمون على ترجمتها : القرآن الكريم ومزامير داود عليه السلام والأناجيل الأربعة وكتاب كليلة ودمنة وكتاب السندباد وكتاب ألف ليلة وليلة ، وكان المسلمون في الأندلس يسيرون على مذهب الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، وقد أدخل موطأ مالك في الأندلس زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون وقد شجع الأمراء الأمويون انتشار مذهب مالك في الأندلس فكان لا يولى القضاء إلا من كان على مذهب الإمام مالك .

ويعتبر ابن عطية أول فقيه عمل على تنقية الدخيل وإزالة الإسرائيليات الوافدة على التراث الإسلامي من اليهود والنصارى الذين اعتنقوا الدين الإسلامي وسار هذا المنهج القرطبي صاحب كتاب التفسير المشهور .

وكان الأندلسيون يطلقون كلمة فقيه على من يريدون تعظيمه فيسمون الأمير العظيم " فقيه" وكذلك العالم النحوي واللغوي لأنها من أرفع السمات عندهم وكان علم الفلسفة وعلم المنطق لهما حظ عند الخاصة فقط .

ومن الفلاسفة المشهورين : ابن ماجة وابن طفيل صاحب رسالة حي بن يقظان وابن رشد الذي ولد في قرطبة سنة ٥٢٠ هـ ومات بالمغرب سنة ٥٩٥ هـ .

صناعة الشعر :

استحدث الأندلسيون فنا من الشعر سموه الموشح وكانوا يسمون المتعدد من الأبيات بيتا واحدا وكان أكثر ما تنتهي إليه القصيدة سبعة أبيات وشاع الموشح في الأندلس لسلاسته فنسجت العامة على منواله .

وتركيب الموشحة يختلف عن تركيب القصيدة العربية في أن الموشحة يخالف الشاعر فيها بين القوافي والأبيات تتباين قوافيها وتعرف بالأسماط أو الأقفال .

أما الخرجة فهي أهم جزء في الموشحة وتقوم فيها مقام المطلع في القصيدة وأكثر ما تكون الخرجة في اللغة العامية أو اللغة الأعجمية .

أما سائر أجزاء الموشحة فهي بالعربية الفصحى والموشحات تمثل الشعر الشعبي في الأندلس ، والشعر الفصيح الملتزم بالوزن والقافية نافست فيه الأندلس أهل المشرق وفى مطلع القرن الرابع ازدانت الأندلس بسفراء منهم : ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد.

الاقتصاد :

أصبحت أسبانيا الإسلامية في عهد بنى أمية أغنى بقعة في أوربا وأكثرها ازدحاما بالسكان ، ولذلك اهتمت حكومة قرطبة بالسياسة الإنتاجية فغنيت بالزراعة وشقت لها الترع وحفرت القنوات وجلبوا إلى الأندلس كثيرا من الأشجار والثمار التي لم تكن معروفة من قبل .

وانتعشت الصناعة واشتهرت قرطبة بصناعة الحرير والصوف ، وقد بلغ عدد عمال المصانع فيها ما يقرب من ١٣٠٠ عامل كما دخلت صناعة الأسلحة في قرطبة وقد ارتبطت حكومة قرطبة اقتصاديا بالمدن الإفريقية كالقاهرة وبيزنطة .

وانتشرت الزراعة لأن قرطبة قامت وسط سهل فسيح يمتد على ضفتي الوادي الكبير أميالا بعد أميال وكانت الزراعة مزدهرة ، ولحقت التجارة بالزراعة والصناعة في الرواج والازدهار وكانت الشارع الكبير يسمى بالسوق والشارع الصغير يسمى بالدرب وكان الميدان يسمى بالسويقة .

وكان لكل حرفة شارع وكان شارع مرقطال خاصا ببيع الملابس الجاهزة وكان سوق الملابس القديمة يسمى بسوق الشعاطين وكانت هناك شوارع لتجارة الأحذية تعرف بالقراقين (الفلين) وكانت البضائع تحمل إلى هذه الأسواق من عدة مدن افريقية وقد عبدت لها الطرق ونظمت القوافل التجارية بالبر والبواخر .

وكان أهل قرطبة متمولون متخصصون وكان أكثر ركوبهم البغال وكان الثراء السمة الغالبة على الحياة القرطبية في طبقات المجتمع المختلفة على امتداد عصر بنى عامر وفى خلال عصر الفتنة والطوائف ونتيجة للتدهور السياسي فان الحالة الاقتصادية بالنسبة لمجموع الشعب كانت بالغة السوء .

الحالة الاجتماعية :

كانت قرطبة نتيجة للتطور الحضاري الذي طرأ على قرطبة على يد خلفائها العظام أن ازدحمت بالسكان من أجناس مختلفة سواء أكانوا من طلاب الكسب المادي عن طريق التجارة أو العمل في قصور الحكام والأمراء أو في أمور الجيش والسياسة .

وقد بلغت دور العامة في قرطبة ١١٣٠٧٧ دارا

كما بلغت دور الأكابر ٦٠٣٠٠ دارا

وكان بها من الحوانيت ٨٠٤٥٢ حانوتا

وكان بها من الفنادق والخانات ١٦٠٠ فندقا وخانا

وكان الطريق مفتوحا أمام اليهود والنصارى للوصول إلى منصب الوزارة فضلا عن غيره من المناصب ووجدت ظاهرة الاختلاط والاتصال عن طريق التصاهر وتبادل المنافع التجارية وغيرها في عهود السلم وكانت هناك أحياء مخصصة للطبقة العليا وهى الرصافة والزهراء والزاهرة ، أما بقية الأرباض فكانت للطبقة الوسطى وللطبقة الدنيا وفى هذا المجتمع كان للمرأة مكانتها شأنها شأن الرجل بلا أي تفاوت من الناحية الإنسانية وذلك في حدود ما أوجبه الإسلام على أساس طبيعة المرأة وفطرتها وكانت تتمتع بقسط كبير من الحرية ، وكان لبعضهن نفوذ كبير في الحياة العامة السياسية والمدنية وقد شارك بعض النساء في رواية الحديث الشريف .

وكان لأهل قرطبة عناية بالنظافة والملبس الجيد الأنيق ، وكان القرطبي الأصل لا يخرج من بيته إلا إذا أسبغ على نفسه رداء من القطن أو الكتان أو الصوف ويلبس فوق ذلك عباءة ، وكانوا يسيرون برؤوسهم مكشوفة وشعورهم تسترسل إلى آذانهم وكان الفرد في قرطبة إذا لم يملك إلا درهما واحدا فإنه يشترى به صابونا ليغتسل به وكان الماء جاريا إلى بيوتهم بوساطة أنابيب الرصاص الذي لا زالت آثارها باقية حتى الآن .

شعر في قرطبة : قال الإمام محمد عبد الحق بن عطية يستودع أهل قرطبة

أستودع الله أهل قرطبة حيث عهدت الحياء والكرما

والجامع الأعظم العتيق ولا زال مدى الدهر مأمنا حرما

شخصيات من قرطبة :

عبد الرحمن الداخل : استحق عبد الرحمن الداخل أن يسميه خصمه اللدود أبو جعفر المنصور صقر قريش .

وقد تولى الإمارة في عام ٣٠٠ هـ ، وقد تمكن عبد الرحمن الداخل بفضل قدراته

المتميزة من إطفاء نيران الفتن التي كانت موجودة في الأندلس وأعاد إلى الأندلس سابق وحدتها ورفع منار حضارتها .

وقد اجتمع شمل المسلمين تحت لوائه وأصبحوا يؤلفون قوة عظمى كان لها أعمق الأثر في بث الرعب والهلع في قلوب نصارى أسبانيا وهابه ملوكهم ورهبوا جانبه ووسطوه فيما بينهم مقابل تنازلات إقليمية من حصون وقلاع تعاهدوا معه على تسليمها للمسلمين ، وتوالت سفاراتهم إلى قرطبة ومدينة الزهراء تخطب وده وتزلف إليه الملوك والأمراء وتنافسوا في كسب سلمه .

وكان ذلك حافزا على تجميل قرطبة حاضرة الخلافة وظهرت في قرطبة على عهده حركة معمارية لم تشهد لها نظيرا من قبل بعد أن تفرغ للتغيير السلمي وساعد على تنشيط هذه الحركة الناصر بالإنشاء والبناء فشرع في بناء مدينة ملكية قريبة من قرطبة تليق باستقبال السفراء ورؤساء الوفود فأسس مدينة الزهراء واستفرغ وسعه في بنائها .

وأصبحت قرطبة تنافس القسطنطينية وبغداد في التوسع العمراني وفي رقي العلوم والآداب وأضاف الحكم إلى بيت الصلاة بجامع قرطبة الزيادة الحكمية التي زودته بكل قيمه البنائية الأصلية وأضاف إليها عناصر معمارية زخرفية مبتكرة .

وتتمثل في القباب الأربعة التي حددت مدخل هذه الزيادة من مظاهر الأصالة في بنيان الزيادة الحكيمة بجامع قرطبة القباب والشبكات التي تعلو أوجه الصوامع الموجودة مواجهات القاعة في قصر الحمراء بغرناطة وقد أصبحت قرطبة مركزا حضاريا هاما في العالم الوسيط ، وبلغت من اتساع العمران والتمصير الغاية وظلت تنعم بهذا الازدهار والرخاء ما يقرب من قرن من الزمان إلى أن نشبت الفتنة واشتعلت نار الحرب الأهلية بقرطبة في أعقاب مصرع الحاجب عبد الرحمن بتحول من المنصور بن أبو عامر .

فتوالت على قرطبة المصائب واستحكمت بها الفتن وهزت كيانها عواصف التمزق والفوضى العامة فغير جوهرها وانقسمت البلاد واشتد الصراع العنصري في البلاد

وقامت عدة دويلات ضعيفة عرفت بدويلات الطوائف وكانت مطمعا سهلا لدولة المسيحيين في أسبانيا ، وأخذت حركة الاستيراد تنشط وعكف الحكام على حياة اللهو والترف وساروا إلى الفونسو السادس كبير ملوك النصارى اتقاء لشره يطلبون وده .

الحكم بن هشام : ولد في قرطبة سنة ١٥٤ هـ وتولى الإمارة في عام ١٨٠ هـ كان شديد الحزم ماضي العزيمة حسن التدبير وكان أشد الأمراء إقداما ونجدة وصرامة كان عادلا وشغوفا بأبهة الملك ونشر مظاهر البذخ الكامل .

فكان أول من انشأ بالأندلس بلاطا ملكيا إسلاميا وأنشأ الحرس الخاص كان الحكم فارسا مجيدا يعشق الفروسية والصيد ، وكان له ألفا فرس من الجياد المختارة مرتبطة على شاطئ النهر تجاه القصر وكان يشرف عليها جماعة من العرفاء البارعين كان قوى النفس حسن التدبير واسع الحيلة فاقذ الرأي ،كان خطيبا مفوها وشاعرا رفيعا وأديبا مجيدا .

وكان إلى جانب ذلك رجل حرب وسياسة وكان شديد الوطأة على أعدائه الثائرين ضده ففي عهده كثرت الفتن والاضطرابات وكان عصر ازدهار للآداب والعلوم وظهر في عهده كثير من العلماء والشعراء ، وقد أقام الفقهاء ضده ثورة عارمة مرتين : منها ثورة الربض عام ٢٠٢ هـ مارس ٨١٨ م وقد هرب أهل الربض من قرطبة واتجه إلى طلبطلة ، وبغضهم ترك الأندلس كلها إلى مراكش .

وكان من نتائج هذه الثورة : أن تزين الحكم بالتقوى واعتصم بالعروة الوثقى وأقر بذنوبه واعترف .

منذر بن سعيد : منذر بن سعيد قاضى الجماعة بقرطبة ،ولد في عام ٢٦٥ هـ تعلم وتأدب وبرع في العلوم الشرعية واللغوية وألف كتبا جمة في العلوم القرآنية والسنة النبوية، كما ألف الزهد والتصوف وكان خطيبا بارعا بليغا عالما بالجدل حاضر الجواب ثابت الحجة ولم يكن معروفا في بداية الأمر .

ولكن الناصر حين جلس على كرسي الخلافة أخذ الخطباء والشعراء يشيدون بذكره

ولم يستطع أكثر من عالم أن يستمر في الحديث من هيبة الموقف فوقف منذر بن سعيد الذي كان حاضرا وأكمل افتتاحية أبي علي القالي وانطلق في بيانه ما تلجلج ولا تلكأ حتى انتهى من خطبته ، ولفت بلباقته وحسن تصرفه نظر الناصر إليه مما جعله يقول معلقا على ما حدث : " والله لقد أحسن ما شاء ولئن أخرني الله بعد لأرفعن من ذكره "

واستدعى الناصر ابنه الحكم وأوصاه بأن يضع يده على منذر ويستخلصه لنفسه ويرفع من شأنه وقد تولى قضاء البصرة بعد وفاة القاضي محمد بن عيسى سنة ٣٥٥ هـ ، وكانت تغلب على منذر صفات الزهد والورع .

وكان منذر بن سعيد إذا صعد المنبر وخطب الناس نفذت كلماته إلى قلوبهم وتغلغلت في نفوسهم وفعلت فعل السحر إلى جانب رقة العبارة وقوة البيان وكان لا يخشى في الحق لومة لائم ، وكان كثير الدعابة والفكاهة والتلطف مع الناس وكان إذا نطق نطق بالحق وإذا حكم بين الناس حكم بما أنزل الله ومن الكتب التي خلفها كتاب أحكام القرآن وكتاب الناسخ والمنسوخ .

<u>الحاجب المنصور</u> : عاش عيشة عادية وبذكائه استطاع أن يقعد على سرير الملك وأن يحيا بتحية الملوك وتسمى بالحاجب المنصور ، ونفذت الخطب والكتب باسمه وأمر بالدعاء له على المنبر عقب الدعاء للخليفة ، تربع على أريكة الحجابة قرابة سبع وعشرون عاما .

وقد جعل الجهاد في سبيل الله شغله الشاغل فسار بجيشه المظفر من بلد إلى بلد لم تهزم له راية قط ، وقد ألقى الرعب في نفوس أهالي شمالي أسبانيا المسيحيين ثم وطد سلطانه في المغرب الأقصى ، ولم يحدث أن ازدهر نجم الإسلام في الأندلس كما ازدهر في عهد المنصور وذلك إذا استثنينا عهد عبد الرحمن الناصر .

وقد شغف بالعلم والعلماء وأحب الأدب وشجع الشعر والشعراء وذخرت البلاد في عهده بطائفة من مشهوري العلماء والأدباء والشعراء .

وكان له في كل أسبوع مجلس يجتمع فيه العلماء وغيرهم للبحث والمناظرة ولم يكن بالمتجبر المذموم ولا بالمتكبر الذي إذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالإثم ولا بالظالم المجهول الذي لا يخشى ربه .

كان يحب العدل وينصر من ظلم من رعيته، كان يقسو على الظالم حتى يأخذ للمظلوم حقه منه، وبذلك نعم الناس بالطمأنينة والراحة والأمن والإحساس بالاستقرار والهدوء ، لقد أقبلت الدنيا على المنصور وامتلأت الخزائن بالمال فجاد بالكثير وأعطى الفقير والمحتاج والضعيف والمسكين .

ووقاه الله تعالى شح نفسه فاجتمعت حوله القلوب ولهجت بذكره ألسنة الناس وضرب على من يأكل أموال الناس بالباطل .

وقد ضرب المنصور بقسط وافر في تشجيع العمران وبخاصة فيما يعود بالخير على رعيته فوسع المسجد الجامع بقرطبة وأقام على نهر قرطبة قرطبة أخرى قريبة من القنطرة القديمة وقد أنفق عليها ١٤٠ ألف دينار وانتهى منها في سنة ٣٩٩ هـ ، كما أقام قنطرة أخرى على نهر استجة وأنشأ ضاحية الزاهرة وكان دائما يحمل مصحفا قد خطه بيده في أسفاره وغزواته يدرس منه ويتبرك به .

وقد تمنى أن يموت مجاهدا في سبيل الله تعالى راجيا رحمة ربه ومغفرته وبلغ من قوة رجائه :(أنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في مواطن جهاده فكان الخدم يأخذونه منه بالمناديل في كل منزل من منازله حتى اجتمع له صرة ضخمة جعلها في حنوطه وكان يحملها حيث سار مع أكفانه توقعا لحلول منيته وقد اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الصنعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته) .

مات في عام ٣٩٤ هـ نتيجة لجراح أصيب بها في معركة من معاركه التي بلغت نيفا وخمسين معركة وحمل على سريره ودفن في مدينة سالم بشمال الأندلس ودفن معه الغبار كما أوصى بذلك ونقش على قبره .

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه

تالله لا يأتي الزمان بمثله أبدا ولا يحمى الثغور سواه

وفى سنة ٤٤٠ هـ انتهت دولة الأمويين في الأندلس وظهر المتغلبون وقويت شوكة بنى عباد وغيرهم ، واستولى كل أمير على ناحية وخلت قرطبة من سلطان يرجع إليه في الأمور .

وأخيرا خربت قرطبة بالجور عليها وصارت كإحدى الدول المتوسطة، ومنذ قيام الفتنة في قرطبة اضطر علماؤها وفقهاؤها إلى الفرار منها بعد أن قام البربر بهدم المكتبات وحرقها وسلب القصور ونهبها لقد هجروا قرطبة ولجئوا إلى الطوائف الذين رحبوا بمقدمهم وأكرموا وفادتهم وعرفوا قدرهم مما ساعد هؤلاء العلماء والأدباء على الاسترسال في إنتاجهم .

ابن حزم : ابن حزم القرطبي الأندلسي شخصية مرموقة في عالم الثقافة الإسلامية التي غمرت الفكر الإنساني بمعارفها وسعة إطلاعها من ٣٨٤ إلى ٤٥٦ هـ

أبوه الوزير أبو عمر الذي كان وزيرا للحاجب المنصور ، امتاز ابن حزم بحدة الذهن وسرعة الخاطر كما امتاز بكثرة الإطلاع وسعة العلم بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والمذاهب والملل والنحل كان أمة وحده في عالم التأليف فقد ألف في الفقه والأصول والمنطق والفلسفة وقد وجه عناية خاصة إلى دراسة الديانات المختلفة المتباينة وقارن بعضها ببعض في بعض مؤلفاته ومن مؤلفاته الفصل بين أهل الأهواء والنحل ، والصادع والرادع على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين ، والجهورة في أنساب العرب ، طوق الحمامة .

عاش في الفترة التي سيطر فيها على قرطبة بنو عامر ثم تلاهم عصر الفتنة وبنو جهور وبنو عباد ولد في آخر يوم من أيام شهر رمضان سنة ٣٨٤ هـ ٧ من نوفمبر سنة ٩٩٤ م ، وكان مولده في قرطبة بقصر أبيه القريب من الزاهرة التي جعلها المنصور بن

عامر دار إمارة تجمع بين مظهر قوة السلاح ومظاهر العظمة والجاه وتولى ابن حزم وزارته المشهورة لصديقه الخليفة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الخامس الذي بويع له بالإمارة في قرطبة في رمضان سنة ٤١٤ هـ ولم تدم أكثر من ٤٧ يوما وكانت له رحلات سياسية اضطرارية مصحوبة بالآلام والتوجع والحسرة ولم يتمن الخروج من قرطبة إلا ليزور المشرق حيث كانت بغداد قبلة العلوم وكعبة الفكر الإسلامي وتفرغ للعلم .

أخلاقه : أبرز أخلاق ابن وفاؤه وتدينه وعنهما تتفرغ كل سلوكياته طوال حياته وما ورد في رسالته الرائعة مداواة النفوس يعتبر مرآة تشف عن أخلاق ابن حزم

وقد عاش حياة حافلة بالإنتاج العلمي والجدال في الحق والصدق والإيمان ، وقد توفى في ٢٨ من شعبان سنة ٤٥٦ هـ ١٥ من يوليه سنة ١٠٦٤ م عن عمر يبلغ ٧٢ سنة .

وقد امتاز ابن حزم باتجاهاته الطيبة وجهوده الكبيرة في نواح متعددة من الفكر وطرق كثيرة من مجالات المعرفة كالفقه والأصول ومقارنة الأديان (الملل) والفرق الإسلامية (النحل) والأدب شعره ونثره واللغة والنحو والمنطق والفلسفة والتاريخ، وكان يجيز الشعر الذي فيه الحكمة والخير مما ينبه النفوس وينشطها ويدعو المرء إلى صالح القول والعمل كما كان يحذر من بعض أنواع الشعر مثل الغزل والتصعلك والهجاء ، أما المدح والثناء فقد كان عنده من المباح المكروه .

مؤلفاته : يعتبر ابن حزم من أكثر علماء الإسلام تصنيفا وقد بلغت مؤلفاته في الفقه والحديث والأصول والملل والنحل وغيرها نحو أربعمائة مجلد تحتوى على ما يقرب من ثمانين ألف ورقة وله رسائل موجودة وله أيضا رسائل مفقودة وتدل مؤلفاته على موسوعة ابن حزم وعبقريته التي جعلته عبقري الأندلس العظيم وذلك لتعدد مجالات المعرفة التي طرقها وهي :

- ابتكار موضوعات جديدة في المعرفة لم يسبق إليها

- كثرة مؤلفاته
- تأليفه لمؤلفات طويلة ثم اختصارها بعد ذلك
- جمعه عدة رسائل في مصنف واحد

ويلاحظ :

- أن كتبه تتضمن كثيرا من سيرته الذاتية
- وتعكس كتبه ألوانا من الحياة الأندلسية الاجتماعية والاقتصادية

وتعتبر هذه المؤلفات أكبر وثيقة متصلة للحياة الثقافية والفكرية والعقدية التي نظمت العالم الإسلامي من خلال القرون الثلاثة الرابع والخامس والسادس للهجرة ، وتمتاز مؤلفاته باستقلال فكرى في نطاق النص القرآني والحديث النبوي وإجماع الصحابة وتدل على مقدرة عقلية عجيبة في الفهم الدقيق الشامل وفى الاستنباط والاستنساخ وفى نقد آراء الآخرين ومجادلتهم ومناظرتهم ويرى ابن حزم أن من فوائد الوعي بالتاريخ : (الإطلاع على فناء الممالك وخراب البلاد المعمورة وتقلب الدنيا بأهليها وذهاب الملوك الذين قتلوا النفوس وظلموا الناس واستكثروا من الأموال والجيوش والعدد ليستديموها لهم ولأعقابهم فما دامت لهم) .

ويرى أنه علم منشط للنفس تستريح به عند سباقها من العلوم الأخرى ويقع علم أخبار الأمم بعد علم الشريعة وقبل علم اللغة ، وقد ركز ابن حزم على ثلاثة عناصر وقدمها عوامل تسهم بدرجة كبيرة في إبداع الحضارة وهى عوامل تؤكد أن الجانب الروحي والفكري هو أهم تفسير للتاريخ .

وأن العوامل المادية والبيئية مع ضروريتها تحتل مرتبة ثالثة من صنع الحضارة وفى استمرار تماسكها وهذه العناصر هي :

أولا : العقيدة والشريعة : فالعقيدة تشبه الروح التي توجه الإنسان إلى البناء وتنقى باطنه من الأمراض الاجتماعية والخلقية ، والعقيدة تدفع إلى الاهتمام بالتحصن الذي

يحمى الأمة كبناء الأسوار والحصون واتخاذ السلاح وما إلى ذلك وبدون العقيدة والشرائع الزاخرة باطنا وظاهرا ستظل فضيلة الفهم والنطق والعقل وروح الإنسان كالبهائم سواء بسواء .

ثانيا : العلم والتربية : والعلم عند ابن حزم يضم كل العلوم تطبيقية ونظرية وقد فرق بين علوم الدين وعلوم الدنيا وأدخل كثيرا من الحرف المهنية وأساليب الزراعة في برامج التعليم والتربية الذي يرى ضرورة أن تنتظم الأمة لكي تعيش في مستوى إنساني معقول من التفاهم والعقل والتمييز .

ثالثا : منهج البحث التاريخي : لقد استمد ابن حزم ثقافته من القرآن الكريم والسيرة النبوية وقد أفاد المؤرخ المسلم من زاويتين :

- زاوية المادة التاريخية التي قدمها سواء ما يتعلق بتاريخ الأمم أو غيره .
- زاوية منهج البحث .

كما استمد ابن حزم ثقافته من كتب السيرة النبوية وكتب الأدب وكتب التراث التاريخي الإسلامية ومن المصادر التاريخية المباشرة

وقد أكد ابن حزم على ثلاثة جوانب في التكافل الاجتماعي :

١- التكافل الاجتماعي

٢- التزام الدولة بكفالة حقوق الفرد الاجتماعية

٣- المستوى المعاشي الكريم الذي يعتبر الحد الأدنى لكل إنسان ويرى حق الجوار والماعون وحق الضيافة ونحو ذلك .

زرياب : اشتهر زرياب بالشعر والأدب وعلم الفلك والتاريخ وكان حافظا لكثير من الحكم والأمثال فصبحا حسن الصوت حلو الحديث درس الغناء على يد إسحاق الموصلي في بغداد ثم ذهب إلى قرطبة ومعه أسرته وقد أسس زريات في قرطبة مدرسة للموسيقا ذاع صيتها كما بحث في طبقة الأنغام وموارد الصوت البشرية بحثا

جديا فجعل أوتار العود خمسة بعد أن كانت أربعة كما اتخذ مضرب العود من أقدام النسور ومن الخشب وأصبحت شهرة زريات مضرب الأمثال وقد أثر زرياب في مجتمع قرطبة وما حولها بأساليبه في المأكل والملبس والعادات وقد طبع زرياب العصر بطابعه وأصبح مثلا يحتذى في ذلك وقد تحكم في ابتداع الأزياء وحث الناس على تنويع ملابسهم تنويعا يتناسب مع اختلاف الفصول وأبطل عادة كانت سائدة في الأندلس وهي إعفاء الشعر وإسداله مفروقا إلى الحاجبين والصدقين ، ومن آداب المائدة ما سرى استعماله بين أهل الأندلس وهو من تأثير زرياب فإليه ينسب استعمال أسمطة الطعام من الجلد وعنه أخذ الناس استعمال الأكواب الزجاجية وتفضيلها على أكواب الذهب والفضة التي كانوا يستعملونها .

وقد أصبح اسم زرياب باقيا ومقرونا بتطور الحياة الاجتماعية في تلك البلاد .

ولادة بنت المستكفي : أبوها الخليفة محمد الثالث الملقب بالمستكفى كانت بارعة الجمال شاعرة نادرة الذكاء وكانت تجيد فن المقابلة وإدارة الحديث مع سرعة الخاطر ولباقة التصرف وقوة الشخصية وكانت المرأة الأولى في المجتمع القرطبي في عصرها ، وقد جعلت ساحات قصرها قاعات يتنافس فيها الكتاب ويتناظر فيها العلماء ويتبارى فيها الشعراء ومن شعرها المشهور قولها عن نفسها :

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها

ابن جهــور : قامت دولة بني جهور في قرطبة على أنقاض الخلافة الأموية وقد ولي الناس أبا الحزم جهور أمر قرطبة بعد أن طردوا هشاما الأخير الملقب بالمعتمد بالله سنة ٤٢٢ هـ ، وكان ابن جهور حاكما قديرا استطاع أن يلم الشعب وأن يبعث النهضة في قرطبة بعد أن كانت في أسوأ حال عند سقوط الخليفة هشام وكان بين ملوك الطوائف بمنزلة الأب يفصل بينهم في القضايا ويصلح بينهم في المنازعات توفى ابن جهور في ٤٣٥هـ/١٠٤٣م .

وتولى الإمارة بعده ابنه أبو الوليد ابن جهور الذي استأنف ما بداه أبوه وترسم خطاه في الإصلاح والنهضة ولكنه تنازل عن السلطة لابنيه عبد الرحمن وعبد الملك وقد تغلب عبد الملك على أخيه وانفرد بالأمارة .

وقد واصل عبد الملك بن جهور حكمه في قرطبة إلى أن استولى عليها ابن عباد وطرد عبد الملك منها وأعلنت جيوش ابن عباد المعتمد بن عباد ملكا على قرطبة في سنة ٤٦١ هـ/١٠٩٩ م.

وبالقضاء على دولة عبد الملك انتهت دولة بني جهور في قرطبة التي ظلت أربعين عاما.

وأخيرا : ودعت الأندلس الموحدين لتقع فريسة للغزو النصراني الذي توالت ضرباته على المدن والحواضر فأخذت تسقط واحدة تلو الأخرى في يد فرديناند الثالث لقد سقطت قرطبة في سنة ١٢٣٦ م وأعقبها اشبيلية سنة ١٢٣٦ م وانحسر ظل الإسلام عن كثير من بلاد الأندلس حيث لم يبق عند منتصف القرن الثالث عشر سوى غرناطة التي كان يحكمها بنو نصر ، وفى القرن الثالث عشر تقدم الصليبيون وهم مزيج من جيوش كثيرة ودمروا كل شيء حتى سووا كل شيء بالأرض وبقيت مغارة صغيرة تسمى جيرالدا لتخبر العالم بما حدث في قرطبة وفى الأندلس ، ونقص عدد المسلمين من ثلاثين مليونا إلى ثلاثة ملايين .

لقد قام الأسبان بتنصير المسلمين وأحرقوا مصاحفهم وهدموا مساجدهم وجعلوا أمر المسلمين إلى رئيس الأساقفة ثم جاءت محاكم التفتيش فحرقت كل شيء إسلامي وعملت على تنصير المسلمين أو إحراقهم .

لقد سقطت قرطبة في يوم الأحد ٢٣ من شوال سنة ٦٣٣ هـ ١٢٣٦ م ، وكان ذلك بجيوش ملك قشتالة فراندة بن الفتش .

لقد كانت قرطبة خلال خمسة قرون مثوى للعلم والمعرفة ومرتوى للعلماء والطلاب وموطنا من مواطن النجدة والفروسية ومنتجعا للقادمين إليها .

وقد بذلت قرطبة جهودا كبيرة للوقوف ضد المعتدين من جيوش قشتالة لكنها اضطرت أخيرا إلى التسليم وقد تحول مسجد قرطبة الجامع إلى كنيسة وليس في قرطبة الآن سوى قطعة من مسجدها الأعظم الذي بناه عبد الرحمن الداخل .

هذه هي قرطبة وهذا هو دورها في تاريخ الفكر الإنساني ولا زال لها في قلب كل مسلم ذكرى تقصر عنها الذكريات فهي تحكى عاصمة أمة ذهبت ودولة إسلامية انقرضت وجنات ضيعت فهي بحق كما قالوا : " الفردوس المفقود" .

قرطبة في العصر الحديث :

لقد سقطت قرطبة بعدها مدن الأندلس كلها مدينة بعد أخرى وكانت آخر مدينة سقطت في أيدي نصارى الأندلس غرناطة وذلك في عام ١٤٩٢ م ، وكان من المنتظر أن يكون سقوط الأندلس بيانا للناس وعبرة للأمة الإسلامية حتى تتقى السقوط بعد أن حقت عليها سنة الله تعالى في الهلاك ودالت دولة المسلمين وحضارتهم حيث كانت الرفاهية والترف طريق الفسوق الموصل إلى الدمار .

لقد كان في الأندلس الإسلامية أكثر من عشرين دولة تتنازع فكل مدينة دولة إضافة لاتساع الهوة بين الحكام وأهل الفكر والعلم مما اضطر الكثير من العلماء والمفكرين إلى الهجرة إلى بلاد الشام وإفريقيا فأصبح الحكام يحكمون بلا عقل يفكر ولا رأى ناضج ناصح .

ونلاحظ أن الروح القبلية الجاهلية والإقليمية المغلقة والتطلع إلى الغنيمة تسرى في حياة المسلمين المعاصرة وتشتد كلما تراجعت المعاني الإيمانية .

ولا يوجد الاستفادة من الأحداث التي مرت بالأمة الإسلامية في الأندلس وفى غيرها مع أن الله تعالى يقول :﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٧/ ١٣٨) .

في العصر الحديث : وفى العصر الحديث يسر المسلم حينما يجد الكثير من المؤتمرات الثقافية والفكرية على مستوى أسبانيا والعالم كله محاولة استرداد الحقبة الإسلامية التي تمثل التاريخ الحقيقي بالأندلس .

وبخاصة وأن الأندلس فترة حضارة ومعرفة قيم إنسانية وكسب علمي يشكل الأرضية التي تقف عليها الحضارة الأوربية اليوم ، كما أن الأندلس لا تزال تعنى فيها تعنى الحيز الهام من المكتبة الإسلامية في الفقه والتفسير والحديث والأدب ولا يزال أعلام الأندلس من المعالم الكبرى في التراث الإسلامي والميراث العلمي والتشكيل الثقافي حتى إننا نستطيع أن نقول : " إن ثقافة المغلوب وحضارته لا تزال حتى اليوم أقوى من سلطة الغالب وقوته ولا تزال الفترة الإسلامية هي مرحلة التنوير والحضارة في التاريخ الأسباني كله " .

وفى ذلك يقول العالم الأسباني أمريكو كاسترو أكبر مؤرخي أسبانيا المعاصرين والذي توفى قبل سنوات قليلة في كتابه (الحقيقة التاريخية لأسبانيا) : " إن الأندلسيين هم الذين خلقوا أول شعور وطني في أسبانيا وأنه لولا هم لما أصبح لأسبانيا أي تمييز وخصوصية تعليان من شأنها بين الأمم ليس في تاريخها الوسيط فحسب بل في تاريخها الحديث أيضا " .

كما يسجل المستشرق الأسباني الدكتور بدر ومارنيمنز مونتابث شهادته قائلا : " إن أسبانيا ما كان لها أن تدخل التاريخ الحضاري لولا القرون الثمانية التي عاشتها في الإسلام وحضارته وكانت بذلك باعثه النور والثقافة إلى أوربا المجاورة المتخبطة آنذاك في ظلمات الجهل والتخلف" .

وهكذا نرى أن التاريخ الإسلامي في الأندلس ما زال هو الذي يشكل الشفرة المتألقة في تاريخ أسبانيا المعاصرة على الرغم من كل أحقاد التعصب ومحاولات الطمس المستمرة ، ولا زال التاريخ العلمي والثقافي الذي يشكل الضمير الحي للإنسان في أسبانيا

موجودا على الرغم من موجات التعصب المتتالية .

فالحقيقة الإسلامية في الأندلس هي العطاءات الثقافية والعلمية التي لا تزال غذاء فكريا لاستمرار الحياة الإسلامية والصحوة الإسلامية في الأندلس في العصر الحاضر تجد صعوبات متعددة ولابد من الاستمساك بالمعيار الإسلامي في التعامل مع الأشخاص .

الصحوة الإسلامية في الأندلس :

لقد ظهرت الصحوة الإسلامية في السنوات الأخيرة في كثير من بلاد العالم ولكن من العجيب أن تظهر في الأندلس ، وذلك بعد أن حدث ما حدث للمسلمين في هذه البلاد .

لقد تفننت الكنيسة والدولة في اضطهاد المسلمين بالأندلس وعملوا على تنصيرهم بالقوة الغاشمة ومنعوهم من التكلم باللغة العربية وأحرقوا كتبهم في الساحات العامة وقتلوا علماءهم وأحرقوهم أحياء وأخذوا أبناءهم لتعليمهم الدين المسيحي فقاوموا مقاومة مستميتة جيلا بعد جيل على الرغم من تسلط محاكم التفتيش التي أحرقت واستعبدت وسبت وصادرت وأتلفت الأموال .

وقاوم المسلمون هناك دون مساعدة من العالم الإسلامي طوال مائة وعشرين سنة بعد سقوط غرناطة ، نعم قاوم المسلمون وتشبثوا بالإسلام سرا وأضاعوا المال والحرية وغيرها لكنهم لم يضيعوا الإيمان فقررت القوة الصليبية العاتية طرد الطبقة الرائدة منهم سنة ١٦٠٩ م ، فانهال على البلدان الإسلامية المطلة على البحر المتوسط ربع مليون منهم يجهل معظمهم اللغة العربية ويتسمى بأسماء أعجمية .

لكنهم كانوا سعداء بإعلان إسلامهم جهرا وبقى الإسلام في الأندلس ذكرى جماعية في نفوس المسلمين .

والصحوة الإسلامية في العصر الحديث هي وليدة المجتمع الأندلسي وتجاربه المريرة.

الجمعيات الإسلامية للوافدين :

لقد غاب الإسلام ظاهرا عن أرض الأندلس منذ سنة ١٦٠٩ م واحتفظ به في القلوب من تبقى من المسلمين الأندلسيين ، ذلك لأن التنصير كان شرطا للإقامة لمن وفد من المسلمين إلى أسبانيا وبعد الحرب العالمية الثانية خف هذا الوضع وهاجر عدد من أهل منطقة الحماية الأسبانية بشمال المغرب إلى أسبانيا جنودا مع جيش فرانكو وكان قد وعدهم أن انتصر في الحرب الأهلية أن يعطيهم مسجد قرطبة الجامع ولكنه لم يف بوعده لهم .

وان كان قد بنى لهم ساحة عامة بوسط قرطبة ومسجدا صغيرا مقابل المستشفى للصلاة على موتاهم .

وقد اقفل المسجد الصغير المسمى عند أهل قرطبة بـ (المورابو) بعد الحرب الأهلية بقليل وأصبح محلا لآليات الحديقة العامة ولم يفتح بعد ذلك إلا للصلاة فقط، ثم تكاثرت أعداد المسلمين الوافدين إلى أسبانيا منذ عام ١٩٦٠ م إلى أن وصلت إلى ٢٥٠ ألف مسلم في عام ١٩٩٠ م ؛ وفى عام ١٩٦٧ م أصدرت الحكومة الأسبانية قانونا جديدا تسمح فيه بحرية الأديان وأصبح من الممكن تأسيس جمعية دينية لأول مرة منذ سقوط غرناطة ، كما أصبح من الممكن تنظيم جمعية إسلامية من غير الأسبان .

ولذلك أسس الطلبة المسلمون غير الأسبان جمعية إسلامية في غرناطة سنة ١٩٦٦ بعد أن اقترح عليهم ذلك الشيخ أبو الحسن الندوي العالم الهندي عند زيارته لأسبانيا سنة ١٩٦٥ م ، وقد سجلوها رسميا بوزارة العدل الأسبانية تحت اسم : " الجمعية الإسلامية في أسبانيا "

وكان معظم أعضاء الجمعية من سوريا وفلسطين وقد تزوجوا من أسبانيات وحصلوا على الجنسية الأسبانية وانخرطوا في الحياة العامة وقاموا بدورهم في طبع نشرات بالعربية والأسبانية كما قاموا بإعطاء دروس إسلامية وإحياء الشعائر الدينية وتعليم الأطفال مبادئ الإسلام نعم لقد احتفظ عدد كبير من أهل الأندلس بدينهم

الإسلامي سرا .

وبعد سنة ١٩٦٠ م تجرأ بعضهم على إعلان إسلامه في أسبانيا نفسها ومنهم المحامي خليل بن أمية وقد أسلم في سنة ١٩٦٩ في باكستان وتزوج بمسلمة سويدية ثم هاجر إلى الدانمرك وإلى كاليفورنيا سنة ١٩٩٠ م ولما سئل عن سبب إسلامه قال :(كنت طفلا صغيرا عند احتضار جدتي فجذبتني إليها وهمست في أذني قائلة : إن الدين النصراني ليس ديننا وليس هو الدين الحق فعندما تكبر حاول أن تعرف دينك) .

فلما كبرت درست تاريخ أسبانيا وفهمت مقصد جدتي فتعلمت الدين الإسلامي واقتنعت به وأعلنت إسلامي في باكستان حيث أمضيت فيها عامين لأتقن تعليمي وهكذا أسلم عدد كبير من الأندلسيين منهم من مكث بأسبانيا ومنهم من هاجر إلى بلاد أخرى .

<u>إلى قرطبة</u> : في سنة ١٩٧٥ م مات فرانكو وتوجه إلى بريطانيا ثلاثة من الشباب الأندلسي واعتنقوا الإسلام وأصبحوا من أتباعه فأمرهم الشيخ عبد القادر بالتوجه إلى قرطبة وتأسيس جالية إسلامية بها .

وفى سنة ١٩٧٧ م توجه أعضاء الجماعة إلى قرطبة واستأجروا بيتا قديما سكنوا فيه جميعا مع أزواجهم وأبنائهم وعملوا في مهن متواضعة باعة متجولين لإعالة أنفسهم وحرصوا نساء ورجالا في تلك الحقبة على ارتداء الزى الإسلامي وانضم إليهم عدد من الأسبان زاد على الأربعين ، وقد ارتكزت فلسفة الجماعة على كونهم يعيشون في مجتمع كافر يجب الخروج عنه فكان كل من يعتنق الإسلام عليه أن يترك أهله وعمله لينضم إلى الجماعة .

وكان مطران قرطبة حينذاك " مونسنور اتفانتى فلوريد " يدعى التسامح وتشجيع الحوار الإسلامي المسيحي ويستدعى علماء المسلمين للصلاة في مسجد قرطبة الأعظم وبعد مؤتمرات سنوية للحوار كان يحضرها استأذنته الجماعة في إقامة صلاة عيد الأضحى سنة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م بمسجد قرطبة الأعظم فأذن لهم .

وكان ذلك أول نشاط علني عرفت به الجماعة التي انضم إليها في صلاة العيد عدد من العمال المغاربة والباكستانيين وغيرهم .

وفى عام ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م طلبت الجماعة من مطران قرطبة الأذن لها بإقامة صلاة العيد في المسجد الأعظم فرفض المطران هذه المرة الطلب خطيا مدعبا أن ذلك سيؤدى إلى انشاقات وحتى إلى الفضيحة .

وصحب ذلك الرفض حملة ضد المسلمين الأسبان في الصحافة الأسبانية ، ورد أحد ممثلي الجماعة على هذه الحملة قائلا " ليس الإسلام ملكا للعرب واعتناق الإسلام لا يعنى أن الإنسان أصبح عربيا نحن مثلا مسلمون أسبان وهناك مسلمون روسيين ومسلمون فلبيين وهكذا .

ولذلك فإنه ليست لنا علاقة مع البلاد الغنية بالبترول إلا علاقة المسلم مع أخيه المسلم وليس أكثر من ذلك وبعض رفض المطران طلبت الجماعة من مجلس قرطبة البلدي بما فيهم أنطونيو توبنا نائب العمدة نكاية في المطران والكنيسة وتعاطفا مع المسلمين أن يوافق على طلبهم وألقى أمير الجماعة حينذاك خطبة عصماء قال في آخرها : (أصبح مجتمع الكفر في حالة إفلاس ثقافة منحلة وفشل ذريع في الميدان السياسي وأزمة اقتصادية متواصلة أقول للجميع الذين يبحثون بصدق عن سبيل يفضى بهم إلى معرفة ذواتهم ويتيح لهم التعاون مع الآخرين بنفسه : الإسلام هو الأمل المضيء أدعوكم لاكتشافه أدعوكم لاكتشاف الحقيقة الإلهية الواحدة أبشركم بإذن الله تعالى ستعود الأندلس إلى الإسلام)، وكان رد الفعل قيام حملة صحفية ضد الجماعة دامت شهورا .

<u>جمعية قرطبة الإسلامية</u> : نشأت فكرة تأسيس جمعية قرطبة عند زيارة الدكتور على المنتصر الكتاني في ١٩/٢١/١١/١٩٧٣ م في إطار رحلة لتقصى شؤون الأقليات الإسلامية في أوربا وأمريكا حيث اطلع على موضوع مسجد قرطبة الجامع .

وكان عمدة قرطبة حينذاك " كوزمن رانيه " قد طلب في مارس ١٩٧٢ باسم

المجلس البلدي القرطبي من منظمة اليونسكو أن تعتبر مسجد قرطبة الجامع أثرا إنسانيا وترجعه إلى أصله الجامع .

كما طلب نانيل كاستيفون مدير المجمع الملكي الأسباني في ١٠/١٢/١٩٧٢ م إعادة المسجد لقيمته الدولية للعلوم والفنون الجميلة ، وقدر مصاريف هذا النقل بعشرة ملايين دولار أمريكي وقد اهتم الملك فيصل رحمه الله تعالى بالموضوع وأرسل مع الشيخ أحمد النعمان رسالة شفوية للجنرال فرانكو في شهر يولية سنة ١٩٧٣ م مبديا استعداد لتحمل مصاريف النقل .

ويفهم من هذا أن أهل قرطبة يعطفون على المسلمين وأن من بينهم من هو مسلمون سرا ، وفى سنة ١٩٧٩ صدر الدستور الأسباني الجديد محتويا على مادة تتعلق بتنظيم الأديان ، وفى ٥/ ٧/ ١٩٨٠ م وافق الكورتس على أول قانون لحرية الأديان وفى نفس العام تأسست جمعية قرطبة الإسلامية حسب القوانين الأسبانية الجديدة وقد تزعم هذا العمل خايمى سبان الموظف في بلدية قرطبة وهو مسلم متجنس بالجنسية الأسبانية ، وهو من مواليد تطون في ١٥/ ١١/ ١٩٢٢ م وتسمى باسم " خايمى سبان " وهو يتقن اللغة الأسبانية إتقان أهلها لها .

وكان يعرف باسم عبد الحميد بن عبد السلام البلفينى وانتقل إلى قرطبة سنة ١٩٧١ تسمى باسم خايمي سيان واندمج في المجتمع الأسباني القرطبي الاندماج الكامل ، وهو يحفظ القرآن الكريم وله معرفة جيدة بالمبادئ الإسلامية .

وفى عام ١٩٨٠ م سجلت الجمعية باسم خايمي سبان التلمسانى وفى نفس العام غير الاسم إلى جمعية قرطبة الإسلامية ، وفى ٥/ ١١/ ١٩٨١ سجلت الجمعية رسميا في وزارة العدل ؛ وقد وافق مجلس قرطبة البلدي على إعطاء مسجد القاضي أبو عثمان لجمعية قرطبة الإسلامية على شرط أن يرمم ويصبح مركز إشعاع إسلامي .

مسجد أبو عثمان : بنى مسجد القاضي أبو عثمان أيام الخليفة الأموي عبد الرحمن

الناصر في الحي العتيق من مدينة قرطبة على بعد مائة متر من المسجد الأعظم ومساحته ألف متر مربع في شارع يسمى الآن " ري هيربديا " .

وعندما احتل النصارى مدينة قرطبة حولوه إلى كنيسة سموها "سانتا كلايا "

ثم باعت الكنيسة البناء العتيق إلى بلدية قرطبة التي تمكنت من التصرف فيه وهو مسجد كبير يحتاج إلى ترميم كبير ومعالمه الإسلامية لا زالت قائمة حتى الآن وبه طابقان ومئذنة ويصلح لأن يكون مركزا إسلاميا متكاملا .

وفى صباح يوم الجمعة ٢٦/١٢/ ١٩٨٠ م سلم مفتاح المسجد في حفل بمجلس قرطبة البلدي لرئيس جمعية قرطبة الإسلامية ، ثم توجه الجميع إلى المسجد حيث صلوا فيه صلاة الجمعة وأذن من أعلى مئذنة المسجد ولم يعجب ما حدث السلطات الكنسية .

ففي سنة ٦/١/ ١٩٨١ م كتب مطران رسالة مفتوحة إلى عمدة قرطبة يقول : " إن تسليم المساجد والبناءات التاريخية من طريق البلدية لجماعة إسلامية عمل خطير يجعلنا نشعر بتيار إسلامي على مدينتنا قرطبة " .

واتهم المطران الإسلام بأنه يعتقد : (أن الجنة تحت ظلال السيوف)، وقال : " بأن تشجيع الإسلام في قرطبة من طرف السلطات المحلية هو غلط تاريخي وكذلك النزول بالقرطبيين من مستوى نصراني رفيع إلى مستوى إسلامي متأخر " .

أنا عمدتك : اتهم المطران عمدة قرطبة والمجلس البلدي بالاستهانة بمشاعر القرطبيين المسيحيين فرد العمدة على المطران في اليوم التالي برسالة قوية قاسية نشرتها الصحف وقال فيها :(إن الدستور الأسباني يحترم معتقدات جميع المواطنين ويحترم حرية العقيدة ولا فرق بين الدين الكاثوليكي والديانات الأخرى أمام الدستور الأسباني)

وقال أيضا (إنه عمدة منتخب ومن واجبه تطبيق الدستور في مدينة قرطبة وانه سبق لبلدية قرطبة أن ساعدت الكنيسة الكاثوليكية وأصبح من واجبها مساعدة المسلمين).

وقال أيضا :(إنه عمدة منتخب ومن واجبه تطبيق الدستور وإنه انقضى عهد تحكم الكنيسة في الأهالي والدولة بدون رجعة وان الكنيسة الكاثوليكية ليست في مستوى أخلاقي يسمح لها بانتقاد الإسلام في أسبانيا) .

وعن شعور أهل قرطبة قال العمدة : (هم قد انتخبوني عمدة ولم ينتخب أحد من أهل قرطبة السيد المطران مطرانا عليها) .

وقال :(إن موقفه وموقف المجلس البلدي هو العدل لمصلحة المدينة وإنه شخصيا لا انحياز له لأي دين إذ أنه ليس نصرانيا ولا مسلما) ،وفى النهاية قال له : (أنا عمدتك وأنت لست مطرانيا).

وكان لهذه الجملة في أول الأمر تأثير طيب على الجمعية الجديدة إذ اشتهر وجودها وكثر أعضاؤها من بضعة أفراد إلى خمسين شخصا في بضعة شهور .

وأصبحت الصحافة تتكلم عن الجالية الإسلامية في قرطبة كواقع بدهي بعد أن كانت منعدمة وحوربت الجمعية الجديدة من اليمين الأسباني والكنيسة ومن بعض الجمعيات الأخرى .

الرجوع إلى الإسلام : وعملت جمعية الرجوع إلى الإسلام في أسبانيا على ربط الصلة مع جمعية قرطبة الإسلامية فوقعت عددة اجتماعات بين الجمعيتين كانت فيه الأولى على ضم الثانية إليها .

وفى ١/٥/١٩٨١ م توصلت الجمعيتان إلى توقيع اتفاق تعاون بينهما في غرناطة وهذا نصه :

(بعد البسملة والصلاة على النبي نقسم بالله العظيم وبهذا القرآن الكريم على العمل يدا واحدة على نضرة الإسلام في أرض الأندلس " أسبانيا والبرتغال " وإعادة شريعة الله وسنة نبيه ﷺ وألا يخذل بعضنا بعضا وألا يغتاب بعضنا بعضا والله خير شاهد لنا على هذا وهو نعم المولى ونعم النصير) .

ووقع عن الجمعية الأولى أميرها منصور عبد السلام وعن الثانية رئيسها خايمى سبان ، كما وقع شاهدان الكاتب والمحامى محمد بن إدريس الحلو من الدار البيضاء وكان على جمعية قرطبة الإسلامية القيام بثلاثة أعمال ضرورية هي :

- التوصل إلى اتفاق خطى مع بلدية قرطبة للحصول على مسجد القاضي أبي عثمان وشروط جمع الأموال لترميمه .
- الحصول على مركز مناسب للجمعية .
- استدعاء إمام لتعليم الداخلين في الإسلام أمور دينهم .

وفى ١٧/ ٧/ ١٩٨١ قدمت وزارة الثقافة متطلباتها لترميم مسجد القاضي أبي عثمان. وقدمت الجمعية للبلدية دراسة متكاملة لترميم المسجد ، وقد أرادت البلدية أن تحدد مدة استعمال المسجد وحق البلدية في استعادته في أي وقت تشاء ولم يتم شيء في ذلك .

لقاء الصداقة : في ١/ ١/ ١٩٨٢ نظمت جمعية قرطبة الإسلامية في مركز البلدية بقصر الخليفة القديم بقرطبة (لقاء الصداقة العربي القرطبي).

وأول مؤتمر افتتحه العمدة واشتركت فيه شخصيات عربية وأسبانية وقد افتتح الحفل بتلاوة آيات من الذكر الحكيم وتبعته محاضرات للدكتور على المنتصر الكتاني وغيره ، واعتبر مطران قرطبة هذا العمل إهانة للكاثوليكية وأقام لذلك ضجة في الصحافة .

وفى ١١/ ١/ ١٩٨٢ م زار الرئيس الجزائري الأسبق السيد أحمد بن بللا وزوجه قرطبة بدعوة من جمعية قرطبة الإسلامية .

وفى أواخر يناير ١٩٨٢ م زار المغرب وفد من الجمعية اجتمع بعدة شخصيات رسمية وغير رسمية .

وفى أوائل فبراير ١٩٨٢ م زار المغرب وفد قرطبي برئاسة العمدة وزوجه وعضوية خايمى سبان وعدد من أعضاء المجلس البلدي بدعوة من بعض العائلات الأندلسية

لشكر العمدة داخل قرطبة على مواقفهم الشجاعة في مساندة الإسلام بها .

وألقى انفنتا محاضرة بالدار البيضاء عن قرطبة ماضيها وحاضرها ومستقبلها وكان لها أعمق الأثر كما استقبلت عدة شخصيات مغربية الوفد في بيوتها منهم الدكتور عبد الكريم بالرباط والأستاذ عبد الله كنون بطنجة والحاج إدريس الحلو بالدار البيضاء ، وانتهت زيارة الوفد في مدينة فاس حيث به أهلها .

ثم زار وفد جمعية قرطبة الإسلامية برئاسة سبان بعض دول الخليج واجتمع بالمسئولين فيها من بينهم الشيخ أحمد المبارك رئيس القضاء الشرعي بأبوظبي دولة الإمارات العربية المتحدة .

وفي يونية ١٩٨٢ م افتتحت جمعية قرطبة الإسلامية مركزا لها في شقة مؤجرة بشارع انخيل ساندا وسط مدينة قرطبة بعد أن كان أعضاؤها يجتمعون في بيت رئيسها بعد أن يئست من استرجاع مسجد القاضي أبي عثمان بشروط مقبولة .

ثم فكرت الجمعية في استقدام أمام من المغرب يعرف الأسبانية والتربية الإسلامية لتعليم أعضاء الجمعية أمور دينهم وتم لهم ذلك في عام ١٩٨٢ م، وكان تأسيس الجمعية مفيدا في إرجاع الإسلام إلى الأندلس .

فقد أثبتت الوجود الإسلامي لأول مرة في قرطبة واعتنق الإسلام عن طريقها عدد كبير من القرطبيين الذين ظلوا مسلمين بعد فشل الجمعية في التنظيم مما سهل إعادة تنظيم مسلمي قرطبة على أسس أفضل كما أظهر وجود هذه الجمعية القوى القرطبية العاملة المعارضة للإسلام فيها والمساندة له ، وقد أسست جمعيات أخرى في غرناطة اشبيلية والمرية ومالقة .

جارودي : في ١٠ / ٢ / ١٩٨٢ زار رجاء جارودي قرطبة قبل إسلامه بصفته مدير المركز الدولي لحوار الحضارات واستقبله عمدتها فتحدث جارودي عن قرطبة مركزا للحوار الحضاري وعن إمكانية تأسيس جامعة لإسلامية بها ، ثم استدعت الجماعة

الإسلامية في الأندلس جارودي لحضور المؤتمر الإسلامي الأول للمسلمين الأوربيين الذي عقد باشبيلية في ١٩/ ٧/ ١٩٨٥ فحضره وانتخب رئيسا له ثم تابع مفاوضاته من بلدية قرطبة للحصول على المنطقة الحرة التي عرضها على جمعية قرطبة الإسلامية فوافقت الجمعية على تسليمها له لاستعمالها متحفا ثقافيا وقد ساعده في إنشاء المتحف عبد الرحمن موليرة أحد زعماء الجماعة الإسلامية في الأندلس وأول مدير للمتحف .

وافتتح المتحف في مارس ١٩٨٧ م بحضور شخصيات إسلامية وشخصيات غير إسلامية من المشرق والمغرب في مؤتمر لحوار الديانات والحضارات ، ولم يكن المتحف إسلاميا وان كانت فيه بعض الظواهر الإسلامية كمسجد قرطبة الجامع وقصر الحمراء ، وفي مارس سنة ١٩٨٦ م اشترت الجماعة بيتا قديما في قرطبة بشارع ري هريديا قرب المسجد الأعظم في شارع مسجد القاضي أبو عثمان وحولته إلى مركز إسلامي بعد الترميمات الضرورية وتبنت برنامجا للدعوة إلى الإسلام في قرطبة .

وفي سنة ١٩٨٦ م فتحت الجماعة مراكز إسلامية في مدن أخرى ومول ذلك بأموال أقطار الخليج .

مسجد المرابطون : في سنة ١٩٨٠ م توصلت الجماعة الإسلامية في أسبانيا إلى اتفاق مع بلدية قرطبة حول مسجد المرابطون الذي بناه فرانكو بقرطبة في ساحة حديقة بقرطبة للجنود المغاربة وقد سلمت البلدية المسجد لهذه الجمعية تحت الشروط الآتية :

- يستعمل البناء للعبادات فقط والمقصود العبادات الإسلامية
- تكون كل أعمال الترميم أو التغيير على حساب الجمعية
- يدوم استعمال المركز لخمس سنوات
- على الجمعية الحفاظ على المسجد بحالة جيدة
- يرجع البناء وكل الإصلاحات التي أجريت عليه للبلدية بعد مضى خمس سنوات دون اعتراض من الجمعية وبعد انتهاء المدة استرجعت البادية البناء .

وسلمته في شهر مارس سنة ١٩٨٦ م إلى سفير المملكة العربية السعودية بمدريد الذي سلمه بدوره إلى جمعية قرطبة الإسلامية، وبذلك أصبح المسجد مركز نشاط للجمعية الإسلامية في قرطبة .

الإسلام منهج حياة : قررت الكنيسة الكاثوليكية جعل سنة ١٩٨٦ م سنة الذكرى السنوية الثالثة عشر لتأسيس مسجد قرطبة الأعظم ونظمت لذلك احتفالات شاركت فيها أوساط ثقافية مختلفة ، فقررت الجماعة إقامة مؤتمر بهذه المناسبة تحت عنوان (الإسلام منهج حياة) بهدف التعرف بمركز قرطبة الإسلامي الجديد والمشاركة في ذكرى بناء المسجد الجامع بقرطبة بطريقة إسلامية وجعلها بداية انطلاقه جديدة للإسلام وحضر المؤتمر حوالي ١٥٠ شخصا من الأندلس ومن خارجها وقد انتخب الشيخ الحبيب بن الخوجة مفتي تونس الأسبق رئيسا للمؤتمر .

وافتتح المؤتمر بصلاة الجمعة في ١٢/٥ في المركز الإسلامي وتبع ذلك الغذاء ثم محاضرات في أساليب الدعوة في الأندلس والإسلام منهج حياة في الغرب ، ثم كونت لجان حول الدعوة والتعليم والشؤون المالية والصناعية .

وخصص يوم السبت للمحاضرات وانتهى المؤتمر في يوم الأحد بالتوصيات وباجتماع مصغر لمجلس الجماعة بحضور الضيوف غير الأندلسيين .

وكان مؤتمر قرطبة ناجحا على الرغم من هجوم الصحافة الأسبانية عليه التي تخاف من انتشار الإسلام وكان من أهم قرارات الجماعة بعد المؤتمر :

جعل قرطبة عاصمة للجماعة الإسلامية في الأندلس بدلا من اشبيلية .

وفى ١٥/١٢/٢/١٩٨٧ م افتتح رجاء جارودي اللقاء العالمي الإبراهيمي في المتحف الذي أقامه في القلعة الحرة " القلعة الإسلامية على ضفة الوادي الكبير بقرطبة والتي قدمها له البلدية لهذا الغرض ،وقررت الجمعية متابعة ذلك المشروع الذي أسس بأموال إسلامية .

ثم قررت الجماعة إرسال بعثات من شبابها إلى البلاد الإسلامية لتكوين أطر تعليمية من الأندلسيين أنفسهم وهكذا وقع اتفاق بين الجماعة وبين رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة لإرسال وفد من الشباب الأندلسي في شهر رمضان عام ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٧ م إلى الديار المقدسة وتنظيم حلقة تعليمية لهم مع إقامة شعائر العمرة وزيارة مسجد الرسول ﷺ وذلك بتمويل من الرابطة .

وقد تطوع عدد من أساتذة جامعة الملك عبد العزيز بجدة للإسهام في هذا النشاط ، وفى ١٠/ ٥/ ١٩٨٧ م شارك حزب التحرير الأندلسي في الانتخابات البلدية في الأندلس ففاز بثلاثة مقاعد في مدينة الجزيرة الخضراء من مجموع ٢٤ مقعدا وبعد هذا النجاح قررت الجماعة فتح مركز لإسلامي لها في الجزيرة الخضراء .

وفى ١٠ / ٧/ ١٩٨٧ م تقدم الحزب لانتخابات البرلمان الأوربي فحصل على ٩٨٨١ صوتا ، وقد برهنت هذه النتائج على أن الأفكار الإسلامية لها صدى في المجتمع الأندلسي ومساندون على الرغم من ضعف الإمكانات .

وقد تابعت الجماعة نشاطها الثقافي والإعلامي منذ يونيه سنة ١٩٨٧ م لأن احتلال قرطبة في الذاكرة الأندلسية هو مثال تاريخي للتعدي على شعب بالقوة وإزاحة الحضارة الإسلامية لمدة ٧٥١ سنة وإحلال الثقافة النصرانية محلها ، وأن المكوث هو التركيز ٢٤ ساعة على السلام والحوار بين الشعوب وبرهنة أن الفكر الأندلسي هو دائما فكر تعاون وسلام وإننا مستعدون لمد أيدينا لأي جماعة من أي جنس أو دين .

وقام المسلمون بالصلوات الخمس جماعة وقررت الجماعة معارضة الاحتفالات بسقوط المدن الأندلسية في كل مدن الأندلس وصرح المسلمون من العبث أن تحضر شخصيات أندلسية هذا الاحتفال الذي هو : "عمل كاثوليكي عسكري يحتفل بذكرى مذبحة أهل أشبيلية المسلمين ".

وفى ٤/ ١١/ ١٩٨٧ يوم ذكرى الأندلس نظم حزب التحرير الأندلسي والجماعة

الإسلامية في الأندلس مظاهرة سليمة في قرطبة فاجتمع المتظاهرون في ساحة كولون في الساعة الثانية عشرة ظهرا حاملين الأعلام الأندلسية واتجهوا نحو المسجد الجامع وساندت منظمات أخرى هذه المظاهرات فنجحت بذلك الجماعة في أن تتزعم الحركة الأندلسية.

بعثات ومظاهرات : في فبراير سنة ١٩٨٨م بدأت الجمعية في إرسال بعثات طلابية لتعليم الإسلام واللغة العربية في البلاد الإسلامية فأرسلت أول بعثة من خمسة طلاب إلى الجامعة الأردنية لمدة سنتين ونصف وكان اثنان منهم من قرطبة ثم توسع هذا البرنامج حتى أصبح عدد المبعوثين يقارب الأربعين إلى عدة بلاد عربية وغير عربية .

كما قامت الجماعة بتنظيم مظاهرات في مدن الأندلس لمساندة الانتفاضة الفلسطينية ، وفى الحقبة من ١٥/ ٢٢/ ٤/ ١٩٨٨م أقيمت مظاهرات في مركز قرطبة الثقافي حضرها عدة آلاف من الأشخاص ولمدة أسبوع كامل .

وفى هذا الشهر أيضا اشتركت الجماعة وحزب التحرير الأندلسي في قرطبة في مظاهرة ضد النفايات النووية في المنطقة القرطبية .

وفى ٢٩/ ٦/ ١٩٨٨م وبمناسبة سقوط قرطبة طلبت الجماعة من مطران قرطبة الإذن بإقامة الآذان وصلاة المغرب والخطبة في داخل المسجد فرفض المطران بحجة أنه لا يمكن أن يسمح بصلاة غير نصرانية في كاتدرائية كاثوليكية ولكن الجماعة رأت أن هذا القرار باطل فقرروا إقامة الصلاة في الشارع أمام المسجد ، وفى الأسبوع ١٥/ ٢٢/ ٦/ ١٩٨٨م قامت جماعة الجزيرة الخضراء بأول نشاط لها على المجال الأندلسي وهو تقديم معرض صوتي وبصري حول مدينة الزهراء وتاريخها وآثارها ، وبهذا النشاط ابتدأ المركز الإسلامية بالجزيرة الخضراء سلسلة من النشاط الثقافي كما تعددت أوجه النشاط كما أخذت الجماعة في تقوية علاقاتها خارج أسبانيا وداخلها .

- في خارجها بإقامة روابط الأخوة بالجمعيات الإسلامية بصفة عامة وبالشتات

الأندلسي خارجه .

- أما في الأندلس فبالتعاون مع كل القوى الأندلسية بصفة عامة وبالجمعيات الإسلامية بصفة خاصة

كما أن الجماعة قد أخذت في تأسيس مراكز أبحاث ونشر مجلات في كثير من الأماكن.

وفى ١٩٨٨/١٢/٤ م احتفل المسلمون بيوم الأندلس على عادتهم بتنظيم مظاهرة انطلقت من ساحة كولون بقرطبة إلى المسجد الجامع ونشروا منشورا بعنوان " من أجل حريتك يا أندلس " وشارك في المظاهرة عدة مئات من المسلمين ومن المتعاطفين معهم .

وفى سنة ١٩٨٩ م كلفت الحكومة الأسبانية الجامعة بالمشاركة في تعليم العاطلين عن العمل ونجحت الجامعة في إعطاء دروس للمئات من العاطلين بتمويل من الدولة في مراكزها ومنها مركز قرطبة والجزيرة الخضراء في اختصاصات مختلفة منها تعليم اللغة العربية كلغة من اللغات القومية الأندلسية لكونها لغة الأندلس القديمة .

وفى عام ١٩٨٩/٧/١٤ م اعترفت اللجنة الاستشارية بالحرية الدينية في أسبانيا بالإجماع بالإسلام كدين له جذور أسبانية وثيقة .

وذلك يعنى حصول المسلمين على نفس المساعدات التي تحصل عليها الأديان الأخرى ، على شرط أن توحد جميع الجماعات الإسلامية في أسبانيا في اتحاد للتعامل مع الحكومة وفى نفس الشهر أسست الجماعة في قرطبة مركزا للدراسات الأندلسية ومجلة لام ألف وهى مجلة إسلامية علمية ذات مستوى رفيع تقدم باللغة الأسبانية أبحاثا أندلسية إسلامية ومواضيع تهم الحاضر والتاريخ والهوية الأندلسية .

وقد عقد المؤتمر الأندلسي الأول في قسطلة في ١٩٨٩/٩/١ م وانتهى بتأسيس مجلى أندلس يجمع بين أهل المهجر وأهل الأندلس ، وحددت له مهام تقوية الثقافة الأندلسية في المهجر وسط أبناء السلالات الأندلسية بإخوانهم في الأندلس وفى الحقبة ١٩٩١/٥/٥/٣ م أقامت الجماعة بمركزها بقرطبة مؤتمرا للحوار الديني من عدة ديانات

أسبانية وقد حضره عدد كبير وكان مناسبة هامة لتقديم الإسلام للحاضرين ، وقد شارك في هذا المؤتمر ممثلون عن النصرانية واليهودية والبوذية والراهيمية والزرادشتية .

وفى ٧/ ١٩٩١ م فتحت الجماعة مركزها الثامن جنوبي قرطبة ، وبذلك أصبحت الجماعة الإسلامية في الأندلس أهم جماعة منظمة في أسبانيا وبدون عون يذكر من العالم الإسلامي على الرغم من وجود الكثير من المثبطات والعراقيل .

وهكذا نجد أن قرطبة بدأت تأخذ دورها الإسلامي في العصر الحديث ، ونرجو من دول العالم الإسلامي أن يمدوا أيديهم إليها وإلى المسلمين في جميع أنحاء العالم حتى يحققوا وظيفتهم في هذه الحياة بالدعوة إلى الله على بصيرة وإخراج الناس من الظلمات إلى النور فبذلك يرضى الله عنهم في الدنيا والآخرة ولمثل هذا فليعمل العاملون .

مراجع قرطبة

١- مجاهد الغامري قائد الأسطول العربي في غرب البحر المتوسط في القرن الخامس الهجري تأليف كليليا سارتلى تشركوا الطبعة الأولى لجنة البيان العربي .

٢- قرطبة في التاريخ الإسلامي د/ جودة هلال ومحمد احمد محمود صبيح المكتبة الثقافية العدد ٧٢ نوفمبر ١٩٦٢ وزارة الثقافة مصر دار المعلم .

٣- معجم البلدان للإمام شهاب الدين الحموي الرومي البغدادي دار صادر ١٤٠٤/ ١٩٨٤ .

٤- الإسلام في أسبانيا د/ لطفي عبد البديع مكتبة النهضة المصرية الطبعة الخامسة ١٩٨٩ .

٥- مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام للأستاذ / محمد عبد الله عنان الطبعة الرابعة مؤسسة الخانجى القاهرة .

٦- نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب الشيخ احمد بن محمد المقري المجلد الأول

٧- تاريخ الإسلام د/ حسن إبراهيم حسن دار إحياء التراث العربي بيروت المجلد الأول والثاني

٨- مدنية المسلمين في أسبانيا ترجمة د/ محمد تقي الدين الهلالي مكتبة المعارف الرباط الطبعة الثانية تأليف جوزيف بال

٩- القيم البنائية في التراث المعماري الأندلسي د/ السيد عبد العزيز سالم كلية الآداب إسكندرية

١٠- هياج الربض د/ احمد إبراهيم الشعراوي كلية الآداب إسكندرية

١١- نماذج من التحف د/ السيد عبد العزيز سالم كلية الآداب إسكندرية

١٢- ظهر الإسلام الجزء الثالث احمد أمين دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الخامسة .

١٣- التاريخ الأندلسي د/ عبد الحي على الحجى دار العلم الرياض الأولى.

١٤- الصحوة الإسلامية في الأندلس جذورها ومسارها الدكتور على المنتصر الكتاني كتاب الأمة العدد ٣١ الطبعة الأولى جمادى الآخر ١٤١٢ هـ.

١٥- العربي / الكوفي / عدد أكتوبر ١٩٦٦ : قرطبة درة مدن أوربا في العصور الوسطي للدكتور / حسين تونسي مدير معهد الدراسات .

الفهرس

كتب صدرت للمؤلف

١- أضواء على التربية في الإسلام .
٢- وظيفة المرأة في المجتمع الإنساني .
٣- جامعات يوسف .
٤- الحدود في الإسلام هدية الله إلى البشرية .
٥- دور المرأة ومكانتها في الحضارات المختلفة.
٦- ماذا تعرف عن بديع الزمان النورسي .
٧- علم الإنسان في القرآن الكريم .
٨- الحضارة الغربية المترفة تسير إلى الهاوية .
٩- الإسلام يدلل المرأة .
١٠- معارك رمضانية فاصلة في تاريخ الإسلام.
١١- الفن بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى .
١٢- أضواء على الغزو الثقافي للمجتمعات الإسلامية.
١٣- مفاهيم إسلامية .
١٤- أوسمة إلهية لخير البرية .
١٥- لماذا أسلمنا ؟ .
١٦- أضواء على شخصيات إسلامية متميزة.
١٧- أضواء على افتراءات أعداء الإسلام على التاريخ الإسلامي .
١٨- أضواء على الحضارة الإسلامية .
١٩- الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية شاملة.
٢٠- خمسة أسئلة عن الإسلام في العصر الحديث والإجابة عليها.
٢١- رجاء جارودي الفيلسوف الماركسي الذي أسلم.
٢٢- المنهاج الإسلامي لحل المشكلة التربوية في العالم الإسلامي .
٢٣- الحكمة في التشريعات الإسلامية .
٢٤- أوسمة نبوية .
٢٥- حضارة التوحيد .
٢٦- ماذا تعرف عن جماعة التبليغ والدعوة .
٢٧- ماذا تعرف عن المدينة الأندلسية قرطبة .

كتب تحت الطبع

١- أضواء على كتب إسلامية حديثة .
٢- الانفجار السكاني بين الحقيقة والخيال .
٣- أضواء على كتب تربوية حديثة متميزة .
٤- أفكار في التربية الإسلامية .
٥- الإتكيت (فن الذوق) .
٦- المدينة المنورة عند الهجرة .
٧- مكة المكرمة عند الهجرة .